مغالطات البابا

دكتــــور

محمود محمد حسين علي

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين القاهرة

جامعة الأزهر

فاتحة وتمهيد

الهجوم على الإسلام يمتدّ في جبهات عريضة ، وترصد له ميزانيات ضخمة ، وتبذل فيه جهود رجال وعقولهم، ولهذا الدين خصوم كثيرون أظهروا خبيئتهم بعد إضمار، فليس يرضيهم شيء إلا أن يصرفوا أهله عنه، وأن يملأوا الدنيا أراجيف بأنّ الإسلام دعوة باطلة ، ورسالة زائفة، وأنه لا يجوز لها البقاء أكثر مما بقيت ((قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر))[١] .

والمبشرون أو المنصرون هم أول من يحمل هذا اللواء لواء الحرب ضد الإسلام والمسلمين، ولا نراهم وربما هم لا يرون أنفسهم إلا استمراراً للحملات الصليبية التي استهدفت منذ ألف سنة اجتياح الإسلام ودك عواصمه ، بل نحن نعتبر هذه الحملات الصليبية الجديدة الحاقدة أكثر علماً وأخطر أثراً لأنها الآن تستخدم أحدث ما وصل إليه العلم من مخترعات فتنشر أضاليلها ومفترياتها ، بأحدث ما وصل إليه العلم من تقنيات.

١- سورة آل عمران : من الآية ١١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

((يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون))

[آل عمران : ٧١]

فمنذ أن انتشر الإسلام وظهر على الدين كله ، وأهل الكتاب من يهود ونصارى يضمرون له الحقد العظيم ، بل إن هناك من الأبحاث والمراجع ما يثبت أن محاربة الإسلام بدأت قبل ظهوره وذلك عن طريق التبديل والتحريف في المجامع الكنسية والذي بدأ بتأليه السيد المسيح وذلك لغلق باب النبوة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.(١)

لكنّ محاربة الإسلام بدأت بتضافر جماعي مع الحروب الصليبية التي حرّرها الغرب لغزو الشرق الإسلامي باسم الصليب وتحت رايته، بشر بهذه الحروب ودعا إليها البابا أوربان الثاني اليهودي الأصل الذي أعلن قيام هذه الحروب باسم الرب في مجمع [كليرمونت عام ١٠٩٥م]، نعم كان رجال الكنيسة وعلى رأسهم البابا أوربان هذا يدفعون الملوك والشعوب إلى هذه الحروب .

لقد كانت الحروب الصليبية بكل خطابها ومبرراتها وأهدافها وشعاراتها ذات طبيعة دينية مسيحية. ولقد رسم البابا أوربان صورة المسلمين التي أراد أن يبرر بها الحرب بأنهم كفار ووثنيون، وهو بتشكيله لهذه الصورة يريد أن يشكل الحرب على أساس أنها حرب ضد الكفار، وأن المؤمنين المسيحيين يخوضون حرباً ضد المسلمين الكفار.

قد يكون هناك بعض الدوافع الأخرى للفرسان الصليبيين منها رغبتهم في بناء إمارات خاصة لهم، أو الحصول على إقطاعيات جديدة وغير ذلك مما يتحدث عنه العلمانيون العرب، إلا أنها لم تكن دوافع لها أهمية في هذه الحرب، ولذلك فإننا لابد أن ندرك أنها كانت حربا دينية مسيحية صليبية بكل شعاراتها وخطابها ودوافعها ومسارها.

لقد كان بسطاء أوروبا يعيشون حياة العبودية ويتطلعون إلى أن يحصلوا على الغفران من خلال المشاركة في الحملة والقتال ضد المسلمين الكفار بدلاً من أن يشتروا صكوك الغفران التي لا يستطيعون أن يدفعوا ثمنها إلا بعد سنوات طويلة من العمل الشاق، وكانوا يريدون الغفران مجاناً، وفي الوقت نفسه التحول من حياة العبودية إلى حياة فرسان الصليب،كما لعب قساوسة آخرون مثل بطرس الناسك دوراً خطيراً في إشعال الحرب حيث طاف أوروبا ليقنع الملوك والإقطاعيين بتمويل الحملة، ويقنع البسطاء بالمشاركة فيها.

(١) الفاتيكان والإسلام : د/ زينب عبد العزيز طبعة دار القدس الأولى صـ١٩

البابا أوربان وبطرس الناسك نجحا في أن يقنعا عامة الشعب في أوروبا بالانضمام للحملة، حيث انضم للحملة الأولى الكثير من الفلاحين وقطاع الطرق واللصوص، ولذلك أطلق عليها حملة الرعاع، وقد قامت هذه الحملة بالكثير من عمليات القتل والنهب والسلب لكنها تعرضت لهزيمة قاسية على أيدي المسلمين.

ولقد ارتكب الصليبيون كثيرا من المذابح في مدن الشام لكن أبشع تلك المذابح التي ارتكبوها كانت مذبحة بيت المقدس التي دخلوها في يونيو ١٠٩٩م، رجب ٤٩٢ هـ.وفيها حاصر الصليبيون مدينة القدس بأربعين ألفاً، وبالرغم من المقاومة البطولية للمسلمين فإن المدينة سقطت تحت الحصار في أيدي الصليبيين المتعطشين للدماء.

إن مذبحة القدس تشكل عاراً للمسيحية، وللبشرية كلها، حيث لم يحترم الصليبيون حرمة المدينة أو مكانتها المقدسة، وتجمع المصادر على قسوة الصليبيين ووحشيتهم وسلوكهم غير الإنساني والذي يتناقض مع كل الأعراف الإنسانية.

وقد تفاخر الصليبيون بأن خيولهم قد خاضت في بحار دماء المسلمين التي وصلت إلى ركب الخيل، ويذكر مؤرخو الحروب الصليبية من الأوروبيين أنفسهم انه كانت هناك جبال من جثث المسلمين المكدسة، ولذلك كان من الصعب الحركة داخل القدس من كثرة الجثث ، وهناك الكثير من المصادر العربية والغربية التي تؤكد صحة عدد ضحايا المسلمين وهو ٧٠ ألفاً، وإن كانت الأوصاف التي توردها هذه المصادر تشير إلى أن العدد أكبر من ذلك.

وفي خلال ما يقرب من قرنين من الزمان كانت المسيحية الغربية في حالة تعبئة عامة وحرب مقدسة ضد الإسلام .

ومن أمثلة ما فعله الباباوات ما كتبه كارلوس الثامن إلى رئيس فرسان رودس يكاشفه بما نواه من نشر الديانة المقدسة الكاثوليكية

وتحرير المسيحية مما هم فيه من الخنوع ، واسترداد الأرض المقدسة المغصوبة، فأجابه رئيس الفرسان متيمنا مؤملا هذه المرة استئصال شأفة الأمة الملعونة أمة محمد.[١]

وقد بلغ عدد هذه الحملات الصليبية ثمانيا وأشهرها أربع :

الحملة الأولى : وكانت بقيادة بطرس الناسك الذي صرخ صرخته المدوية في المؤتمر الكنسي الكبير (وهكذا أراد الله)، وأعلن بعد ذلك في المؤتمرين أنها أصبحت شعارهم ، شعار الصليبيين وقال : (أجل هكذا أراد الله ... ولتكن هذه العبارة التي أوحى بها الروح القدس صرختكم للحرب من الآن ، ليعود الحماس بفضلها ، وترجع بسرها الشجاعة إلى قلوب أولئك الذين سيدافعون عن السيد المسيح وليكن الصليب رمز خلودكم .. فاحملوا الصليب على صدوركم ، وليكن لونه من لون الدم) وتم تأليف جيش قوامه مائتا ألف مقاتل معظمهم من المرتزقة وقطاع الطرق ، وانتهت هذه الحملة بهزيمة الصليبيين على يد المسلمين الأتراك بالقرب من مدينة (نيقية).

الحملة الثانية :بعد فشل الحملة الأولى نظم الصليبيون حملة بقيادة (جود فروي)، واستولت هذه الحملة على القدس بما فيها من مقدسات إسلامية ، ونصب قائدها من نفسه ملكا على القدس يوم الجمعة [١٥يوليو ١٠٩٩م _ ٣ رمضان ٤٩٣ هـ] ، وفي مشهد تاريخي رهيب رأى خدام الربّ أن يكرموه بذبح اكثر من سبعين ألف مسلم تعظيما وإجلالا وزلفى وقربانا للرب ، ولم يرحموا كبار السن ولم يرحموا الأطفال ، ولم يرحموا النساء حتى سبحت الخيل إلى صدورها في الدماء، وقد استمرت هذه المذبحة ثلاثة أيام .. وإن من احتفظوا بهم من الأسرى دون أن يقتلوهم إنما يرجع بقاؤهم على قيد الحياة إلى التعب والإجهاد

(١) حاضر العالم الإسلامي : تأليف لوثروب ستودارد _ نقله إلى العربية الأستاذ / عجاج نويهض _ علق عليه الأمير شكيب أرسلان _ طبعة دار الفكر الثالثة ١٩٧١م صـ ٢٢٨

الذي أصاب الصليبيين لكثرة ما قاموا به من القتل .[١]

الحملة الثالثة :وكانت بقيادة (رينو دي شاتيون) حاكم أنطاكية ، وأسوأ صورة للصليبي السفاح المتعطش للجريمة ، بلغت به القسوة أن أمر بالقبض على الأسقف الكاثوليكي (أميري دي ليموج)وجلده بالسوط وأمر أن تطلى جروحه بالعسل .. وأن يلقى تحت وهج الشمس للذباب إمعانا في تعذيب ضحيته .. وقد قرر(رينو دي شاتيون) غزو مكة والمدينة والاستيلاء عليهما ، بالإضافة إلى ما كان يطمع فيه من السيطرة على خليج العقبة والبحر الأحمر . وكانت هذه المطامع تجد خير سند لها من الصليبيين ، نظرا لسيطرتهم في هذا الوقت على فلسطين والأردن، وتنفيذا لمشروع هذا الغزو ، قام ببناء أسطول خفيف في موانى فلسطين ، ثم فكه قطعا، وحمله إلى خليج العقبة .

وضاق صلاح الدين الأيوبي بهذا التهديد وزحفت جيوشه من مصر وسوريا وعلى شاطئ طبرية هزم جيش الصليبيين هزيمة ساحقة ووقع (رينو دي شاتيون)في الأسر .

الحملة الرابعة :وكانت بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وهو من أشدّ أنصار الحروب الصليبية ، وقد بدأ الزحف على مصر في شهر مايو ١٢٤٩م وعند ساحل دمياط نزلت قواته لغزو البلاد ،وتم لها الاستيلاء على المدينة ، وبادر رجاله بنزع الهلال الذي كان متخذا مكانه فوق أعلى قبة مسجد دمياط ووضعوا مكانه صليبا وحولوا المسجد إلى كنيسة أطلقوا عليها كنيسة(نوتردام)واحتفل فيها المندوب البابوي بأول قدّاس بمناسبة النصر .. ثم عبروا النيل ودخلوا مدينة المنصورة ، ولكن النجاة كتبت لمصر في تلك المرحلة الدقيقة من حياتها على يد أبطال استطاعوا أن يحولوا مجرى التاريخ ، وكان على رأسهم رجل لم يكن وقتئذ في مكان الصدارة استطاع أن ينقذ المنصورة بل وينقذ الجيش ومصر بأسرها ، وتمكن بقوة إيمانه من قلب نصر الصليبيين إلى هزيمة، ذلك الرجل هو (الظاهر بيبرس)الذي جعل من المنصورة فخا وقع فيه الصليبيون ،

(١)حاضر العالم الإسلامي : مرجع سابق صـ ٢٢٨.

فذاقوا مرارة الهزيمة .. وفرّ منهم نحو فارسكور من فر .. وأسر من أسر .. وكان ملكهم لويس التاسع في طليعة عشرة آلاف أسير.

وانتهت هذه الحملة الصليبية بهذه الهزيمة النكراء مما دفعهم للتفكير في وضع سياسة جديدة تستهدف نفس الغرض، ولا فرق بين الحملتين إلا من حيث نوع السلاح الذي يستخدم في المعركة .

فمنذ ذلك الوقت لم تكف محاربة الإسلام وإن اختلفت المسميات وتنوعت الأساليب ، فقد عقدوا كثيرا من المؤتمرات من أجل أن ينجحوا فيما فشلت فيه الحروب الصليبية.

وإذا كان الفارق الزمني بين البابا أوربان الثاني والبابا بيندكت السادس عشر حوالي ألف عام فإن حديثهما عن الإسلام لم يختلف كثيراً رغم تلك السنوات الطويلة والواضح أن الحقد على الإسلام هو الذي يجمع بينهما.

والذي ينظر في السنوات الأخيرة إلى إساءات النصارى للإسلام يجد أنها قد ارتفعت وتيرتها، وزادت حدتها، وتنوعت مصادرها، فقد أسيء إلى الإسلام من قبل الساسة والقادة، وأسيء إلى الإسلام من قبل الكتاب والمثقفين، وأسيء إلى الإسلام من قبل الممثلين والفنانين، وأسيء إلى الإسلام من قبل الصحفيين والإعلاميين، وأسيء ويساء إلى الإسلام من قبل قساوسة ومبشرين وأخيراً من قبل أكبر رأس في رجال الدين النصراني.. حتى الكاريكاتير أراد رساموه أن يشاركوا في الحملة وأن يضربوا بسهم فيها...فما الذي جرأهم على ذلك؟

إنه حالنا وهواننا فإنهم لم يجدوا في المسلمين ما يردعهم أو يمنعهم، فمن أي شيء يخافون ولماذا لا يتطاولون، وقديما قيل:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له

....وتتقي مربض المستأسد الضاري

صار المسلمون ودينهم هدفا لكل مخالفيهم ، باستخدام كل الأسلحة ، فهذه مقولة " الحملة الصليبية " _التي تلفظ بها بوش الصغير _ثم أعقبتها تصريحات لغيره من الساسة والقساوسة الغربيين ، والرسوم المسيئة للرسول _ صلى الله عليه وسلم _ في الدانمارك ، وأخيرا وليس آخرا تصريحات البابا بنديكت السادس عشر التي تهجم فيها على الإسلام ،والرسول صلى الله عليه وسلم.

هذا الكلام مثال لحقد قديم متجدد ، فقد وضع هؤلاء القوم ستارا غليظا من الحقد يحول بينهم وبين أن يفهموا الإسلام ويفهمونا، نفس الأفكار التي رددها كثير من المستشرقين في أسلوب جديد وفي ثوب براق، يراد منه أن يصلوا إلى نتيجة محددة سلفا وهى تشويه الإسلام أو كما يحسبون إصابته في مقتل ، وبئس ما أرادوا وما حسبوا ، فنور الله لن يطفئه بشر كائناً من كان ((يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون))[1]

في يوم الثلاثاء ١٢/ ٩/ ٢٠٠٦م ألقى بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر _وهو البابا ٢٦٥ للفاتيكان _ محاضرة في جامعة ريجنسبورج بولاية بافاريا الألمانية كان عنوانها: "الإيمان والعقل والجامعة ذكريات وانعكاسات"، ودار مضمونها حول الخلاف التاريخي والفلسفي بين الإسلام والمسيحية في العلاقة التي يقيمها كل منهما بين الإيمان والعقل.

بدأ البابا المحاضرة باجترار للذكريات التي عايشها أثناء مرحلة الدراسة والعمل بالجامعات الألمانية ومن بينها جامعة ريجنزبورج، مشيرا إلى أن هذه الجامعة كانت وما زالت فخورة بكليتي اللاهوت التابعتين لها، لما لهما من دور في تعميق مفهوم الإيمان، وكيف أن جميع من في الجامعة من أساتذة وطلاب كانوا يلتقون للحوار على اختلاف التوجهات والآراء.

وقال: "هذا التماسك الداخلي للإيمان داخل هذا الكون لم يتأثر عندما قال أحد الزملاء بجامعتنا إنه من المثير للدهشة أن هناك كليتين تنشغلان بأمر غير موجود في الواقع، ألا وهو الرب".[2]

ثم انتقل للحديث عن العلاقة بين العقل والعنف في الديانة الإسلامية والخلاف في هذا الصدد بين الديانتين الإسلامية والمسيحية، في المحاضرة التي ألقاها البابا ، وصف البابا ما يراه اختلافاً شاسعاً بين المسيحية والإسلام: ففي حين تقوم

---

[1])سورة الصف : الاية ٨

[2])في نهاية البحث ترجمة كاملة بالعربية لنص المحاضرة الجزء الخاص بموضوعنا .

المسيحية على العقل، فإن الإسلام ينكره. وفي حين يرى المسيحيون منطق أعمال الله، فإن المسلمين ينكرون وجود هذا المنطق في أعمال الله.

ولكي يثبت البابا انعدام العقل في الإسلام، فهو يؤكد أن النبي محمدا أمر أتباعه بنشر العقيدة الإسلامية بحد السيف. وحسب ما جاء على لسان البابا، فإن هذا شيء غير منطقي، لأن الإيمان يولد من الروح، لا من الجسد. فكيف يؤثر السيف على الروح؟

ولإثبات مقولته، لم يجد البابا أحداً أفضل من أحد الأباطرة البيزنطيين، الذي كان ينتمي بطبيعة الحال، إلى الكنيسة الشرقية المنافسة، ليستشهد بكلامه.

ففي أواخر القرن الرابع عشر، دار حديث بين الإمبراطور مانويل الثاني ١٣٥٠ – ١٤٢٥م- أو كما قال (إذ يشك في أن يكون هذا قد حدث فعلاً) - مع عالم فارسي مسلم لم يذكر اسمه. هذا الحوار ورد في كتاب يحمل عنوان "حوارات مع مسلم المناظرة السابعة"، وقدمه ونشره في الستينيات عالم اللاهوت الألماني اللبناني الأصل تيودور خوري من جامعة مونستر.

وفي غمرة النقاش المحتدم، ألقى الإمبراطور (كما قال هو نفسه) الكلمات التالية في وجه خصمه:" فقط أرني أشياء جديدة جلبها محمد، ولن تجد سوى أشياء شريرة وغير إنسانية، مثل وصيته التي يأمر فيها بنشر الدين بحد السيف".

ويضيف البابا قائلا إن الإسلام لا يجمع بين العقل والإيمان. البابا أكد أن تلك الأقوال ليست له وإنما نقلها عن الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني الذي عاش في القرن الرابع عشر وكأنه أراد القول إنه ليس بالضرورة أنه يؤمن بتلك الأقوال.

خلاصة ما قاله الباب في هذه المحاضرة يرجع إلى ثلاثة أمور :

أولا : العلاقة بين العقيدة والعقل وأن العقيدة في الإسلام لا تؤسس على العقل بينما هي في المسيحية مبنية على العقل .

ثانيا : دعوى انتشار الإسلام بالسيف.

ثالثا : دعوى أن النبي محمدا لم يأت إلا بما هو سيئ وغير إنساني.

لا يمكن أن نسكت على الأذى، بل لا بد لنا أن ندافع عن ديننا

وعقيدتنا ونبينا بالحجة والمنطق ، فلو كان الامر يتعلق بالأشخاص كان بمكننا العفو والصفح.. لكن هنا الإساءة تتعلق بنبي عظيم، وبعقيدة ورسالة عظيمة، وأمة كبرى، وبتاريخ حافل بحضارة من الحضارات الكبرى في تاريخ الإنسانية.

لهذا كان علينا أن ندافع، خاصة أننا رأينا أن هذا الهجوم فتح أبوابا لهجوم على الإسلام والمسلمين ، لهذا كان علينا أن نضع النقط على الحروف، ونرد عن إساءة نبينا بالحق لا بالباطل، وبالرفق لا بالعنف، وبالحجة لا بالسيف.

قد يقال بعد عرض كلام البابا الذي يهرف بما لا يعرف إن هذا كلام فارغ ولكن نحن نقول هذا الكلام الفارغ هو الحديد والنار اللذان يحاربنا به أعداؤنا، إنها أسلحة يحاربوننا بها، أسلحة تنفعهم في المعركة، لا مجرد فقاقيع يلعب بها في الهواء، ثم تتلاشى إننا قد نسخر من هذا الكلام الفارغ ولكنه في النهاية يؤذينا ، إنه سم يستقر في الجسد ،وماذا نفعل نحن لنتقى هذا السم؟ هل نتجاهله ونقول إنه كلام فارغ ، صحيح أن فيه كذبا وتضليلا وصحيح أنه صادر عن حقد عميق ، ولكن ليس كلاما فارغا ولا يخدمنا في شئ أن نلقيه بعيدا وننام قد يقال أيضا إن بعض هذا الكلام بل وكله قديم رد عليه من قبل علماء أفذاذ ونقول نحن إن القرآن يقول:((وإن عدتم عدنا))(١) والعرب تقول: إن عادت العقرب عدنا لها، ونحن لا ندعى أننا سابقون وإنما ناقلون لردود أساتذتنا وجهابذتنا العلماء .

والطعنة (البابوية) غائرة الجرح، شديدة الإيلام. فادحة الإساءة لـ٢٥ %من سكان الكوكب الأرضي من بني آدم ، وعلى الرغم من ذلك، سنلتزم الهدوء والصبر وتحمل الأذى، ونجادله – ومن معه – «بالتي هي أحسن» – كما أمرنا إسلامنا ((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن))(٢).. وبالمناسبة فإن منهج المجادلة بالتي هي أحسن – الذي شرعه دين محمد – إنما هو موقف عقلاني من حيث إن الحجاج العقلي، والحوار المنطقي، لا يصحان ولا يثمران إلا في مناخ

---

(١) سورة الاسراء : من الاية ٨

(٢) سورة العنكبوت : من الآية ٤٦

هادئ وحوار رصين فيه الحكم للبراهين والأدلة وحدها بدون انفعال وتعصب..

غير أنى وإن رفقت وجادلت بالحسنى لا أستطيع أن أمنع نفسي عن أن تستنفر المسلمين للوقوف أمام هذه الأحقاد ، ولا يحسبن أحد أن هذا عنف فنحن المسلمين نعتبر العنف خليقة مرذولة فهو أول العدوان ، والإسلام لا يضيق بشيء كما يضيق بالمعتدين وسيرهم .

وأتذكر ما قاله قديما سعد بن ناشب :

تفندني فيما ترى من شراستي
وشدة نفسي أم عمرو.وماتدري
فقلت لها : إن الكريم وإن حلا
ليلفى على حال أمر من الصبر
وفي اللين ضعف والصلابة شدة
ومن لم يهب يحمل على مركب وعر
وما بي على من لان من فظاظة
ولكنني فظ أبي على القسر
أقيم صفا ذا الميل حتى أرده
وأخطمه حتى يعود إلى القدر

إنني أعرض هذا الكلام وأنقده لا لأسلى القارئ أو لأهون عليه أمر خصومنا، إنني أعرضه وأنقده لبيان الحقيقة التي يماري فيها أهل الباطل ويجادلون .

أما صاحب هذا الافتراءات فأقول له إن كلامك لن يزيد على ما قاله الأعشى قديما :

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

واذكره بما ورد في إنجيلهم الذي بين أيديهم منسوبا للسيد المسيح -عليه السلام- ((لماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها ؟أم كيف تقول لأخيك دعني أخرج القذى من عينيك وها الخشبة في عينيك يا مرائي أخرج أولا الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيدا أن تخرج القذى من عين أخيك))(١) .

في هذه البحث سأتحدث عن خمسة موضوعات غير الفاتحة والخاتمة .

الموضوع الأول : تعريف بالبابا صاحب الافتراءات .

الموضوع الثاني : هل هي مصادفة أو زلة لسان ؟

الموضوع الثالث : العقيدة الإسلامية والعقل .

الموضوع الرابع : رد فرية انتشار الإسلام بالسيف .

---
(١)إنجيل متى : الإصحاح السابع ٦/٣

الموضوع الخامس : دفاع عن الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم .

كما نورد في النهاية ترجمة لنص المحاضرة باللغة العربية

بصرنا الله بالعلل ، وجنبنا الزلل ، وعصمنا من الخلل إنه ولي ذلك والقادر عليه .

<u>أولا : من هو البابا بنديكت السادس عشر ؟</u>

تقول الكنيسة الكاثوليكية في روما منذ بضعة قرون بعصمة البابا ، ولهذا لا تصدر عنه وثيقة مكتوبة، أو كلمة مرتجلة، أو تصريح بموقف، دون جمع معلومات ودراسة ومناقشة وصياغة ومراجعة، فلا يُعلن شيئا إلاّ بعد ضمان -بحدود قدرة البشر- حتى لا تضطر الكنيسة لاحقا إلى الرجوع عنه، ناهيك عن الاعتذار بسببه، وليس مجهولا أنّ بعض أخطاء الكنيسة التاريخية الكبرى لم تجد طريقها إلى اعتذار رسمي، إلاّ بعد مرور مئات السنين عليه.

على رأس الكنيسة في هذه الأيام بابا يسمى بنديكت السادس عشر ، اسمه الأصلي جوزيف آلويس راتسينجر، ولد يوم ١٦-٤-١٩٢٧م في عائلة كاثوليكية متديّنة، في منطقة بافاريا، الأشهر من سواها في ألمانيا من حيث انتشار الكاثوليكية والتمسّك بها قديما وحديثا، ولا يزال يفخر بأنّ تعميده جرى سريعا في يوم ميلاده ليكون من "ماء عيد الفصح".

كان في السادسة عشرة من عمره عندما أعرب عن رغبته في أن يصبح قسيسا، ومَن يذكر أنّ له "ماضيا نازيا" يستشهدْ على ذلك بعمله في خدمة الجيش النازي لإنشاء حواجز ضدّ الدبابات في النمسا المجاورة لبافاريا، وذلك حتى الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، وكان منذ عام ١٩٤١م من "شبيبة هتلر"، والواقع أنّ الانتماء إلى هذه المنظمة كان واجبا قسريًا على الناشئة من التلاميذ في معاهد معيّنة في ألمانيا .

التحق راتسينجر فيما بعد بالجامعة لدراسة "علم الأديان" الكاثوليكي والفلسفة، وأظهر مبكرا اهتمامه بالكتابات الفلسفية-الدينية، لا سيّما ما خلفه الفيلسوف الديني "أوجوستينوس"، الذي كان في القرن الرابع الميلادي الركن الأساسي لتنظير تعاليم التثليث الكنسية وتثبيتها لدى الكاثوليك

والأرثوذكس، قبل انفصال الفريقين نتيجة خلافات على تفاصيل تلك التعاليم لاحقا.

حصل راتسينجر على الدكتوراة عام ١٩٥٣م في العلوم الدينية، وعلى درجة الأستاذية عام ١٩٥٧م في فرع "أسس علم الأديان"، وبدأ بالتدريس في العام التالي، لما يُسمّى الإملاءات العقدية الكنسية/ الدوجما وتاريخها، وفي عام ١٩٥٩ م بدأ التدريس في جامعة بون بمحاضرة عنوانها "إله الإيمان وإله الفلسفة"، ثم عام ١٩٦٩م في جامعة ريجينسبورج (وهي الجامعة التي ألقى فيها محاضرته يوم ٩/١٢/ ٢٠٠٦م، التي تضمّنت الإساءة إلى الإسلام) وفي عام ١٩٧٧م أصبح كبيرَ الأساقفة في المدينة نفسها، وبعد شهر واحد تمّ تعيينه برتبة "كاردينال"، وفي تلك الفترة كان لقاؤه الأول مع سلفه يوحنا بولس الثاني، قبل أن يصل الأخير إلى كرسي البابوية في روما بفترة وجيزة.

في الفترة التي جمعت بين دراسته الجامعية ومناصبه الكنسية، بدأت اتجاهاته الكنسية بالظهور، ومن بينها التأكيد أنّ على البابا الكاثوليكي أن يأخذ في قراراته الحاسمة مجموع الكنيسة في الاعتبار، منتقدا الانفراد والمركزية في اتخاذ القرار الكنسي. ولكنّ "إصلاح الكنيسة" باتجاه "ديمقراطي" لم يستمرّ طويلا، بل اضمحلّ نسبيا في مواقفه وكتاباته لاحقا، ويعلّل هو ذلك بتأثره بمصادماته سابقا مع أنصار ما يسمّى "ثورة الطلبة". وأصبح في هذه الأثناء يُصنَّف بين "المحافظين" في نطاق الكنيسة. والمقصود بهذا التصنيف في الدرجة الأولى مواقفه على الصعيد الاجتماعي، أي رفضه المطلق لتمييع موقف الكنيسة في قضايا العلاقات الجنسية، لا سيّما ما انتشر من تقنين الشذوذ في كثير من البلدان الغربية في هذه الأثناء، بالإضافة إلى رفضه انخراط النساء في المراتب الكنسية الكاثوليكية العليا ، وكانت هذه الآراء دافعا لتلقيبه من بين زملائه بالكاردينال المدرع.

في فترة وجود "الكاردينال راتسينجر" في الفاتيكان بات يوصف باليد اليمنى للبابا يوحنا بولس الثاني، ومن أسباب ذلك مسئوليته عمّا يسمّى "مجمع شئون الإيمان" وهو الاسم الذي اختير لمجمع كان يحمل سابقا المسئولية عن تثبيت

تهمة الهرطقة على من تقرر الكنيسة محاكمتهم. وعززت تلك الفترة الجانب "العقلاني" في قناعات راتسينجر الذاتية، وارتبط باسمه إصدار الكنيسة عام ١٩٩٨م قرارا بفتح الملفات الوثائقية القديمة عن تاريخ المحاكمات التي أودت في القرون الوسطى بحياة العديد من العلماء والمعارضين.

اعتلى كرسي البابوية يوم ١٩-٤-٢٠٠٥م، ليواجه عددا من المهامّ المقترنة بالتساؤلات عمّا ستكون عليه سياسة الكنيسة في عهده، بعد أن اكتسبت صبغةً جديدة وحركةً دائبة في عهد سلفه يوحنا بولس الثاني، الذي بقي في كرسي البابوية أكثر من ربع قرن. وأهمّها ثلاثة:

أولها: صعود الإسلام وانتشاره في العالم وفي الغرب خصوصا في مقابل التعاون معه في ذات الوقت ضد موجات الإلحاد العالمي وتفشي انهيار القيم الأخلاقية على المستوى العالمي.

والثاني : مواجهة انهيار الكنيسة الكاثوليكية وتقلص أتباعها خصوصا في الغرب.

ويتصل بالنقطة الثانية الأمر الثالث، وهو مواكبة الكنيسة للتطور التكنولوجي العالمي الهائل وقدرتها على التوفيق بين آرائها الكهنوتية وهذا التقدم العلمي كي لا تتحول العلاقة مع العلماء إلى سابق عهدها في العصور الوسطى وعهود الهرطقة الدينية، بحيث لو نجحت الكنيسة في هذا فستكون أكثر تقارباً مع الغربيين والعكس صحيح.

ثانيا : هل هي مصادفة أو زلة لسان ؟

يحاول البعض أن يوهم الناس والمسلمين خاصة أن ما قاله بابا الفاتيكان لم يكن سوى خطأ غير مقصود، وقد كان يمكن أن نقبل ذلك لو كانت مجرد كلمة عابرة خلال المحاضرة، فيقال إنها سقطة أو زلة لسان أو كلمة خانه فيها التعبير، وقد حاول المتحدث باسم الكنيسة الكاثوليكية أن يعتذر اعتذارا غير مباشر.. عندما قال مثلا: إنّ البابا الكاثوليكي لم يقصد الإساءة، والواقع أنّ المشكلة في البداية لا تتمثّل في "قصده" بل في مضمون كلماته.

فالحقيقة أن الحديث عن الإسلام أخذ ما يقارب ثلث المحاضرة أو ربعها على أقل تقدير، فالأمر ملاحظ

ومدروس خصوصًا وهو رجل أكاديمي يعلم تمامًا معنى كلمة محاضرة، ففهم هذه الكلمات يجب أن يكون باعتبارها وردت في "محاضرة" على مستوى علمي، وهذا صحيح، ولهذا لا يمكن اعتبارها غير "مدروسة".

ومما يؤكد أن الرجل يعي تمامًا ما يقول ويقصده تمام القصد أنه لم يتهم الإسلام اتهاما واحدًا بل عدة اتهامات كلها ثقيلة وكبيرة رغم كونها قديمة.

وليس صحيحا أن يقال: أن البابا كان (ناقلا)، (لا مقررا) لهذه المقولة المجردة من كل تهذيب، ذلك أن السياق كله يفيد بأن البابا أوردها مورد (المتبني) لها.. والضمائم الأخرى تؤيد ذلك.

ذلك أن البابا استند على قول الإمبراطور مرتين، مرة في بداية محاضرته أثناء تكريسه لفكرة أهمية العقل في نشر الإيمان ومرة في آخر المحاضرة حين اختتم بالدعوة إلى حوار الثقافات مؤكدا من جديد على ضرورة إعلاء دور العقل في هذا الحوار، مستشهدا بقول الإمبراطور.

وأيضا اعتباره للإمبراطور البيزنطي نموذجا مقنعا للمسيحي الإغريقي المتشرب للروح الهيللينية التي يتخذها في محاضرته هذه كمرجعية أساسية للاهوت المسيحي النموذجي.. وبالتالي أن يكون استشهاده بهذا الحوار الفارسي- البيزنطي محض صدفة أو مجرد رأي لا يتبناه، فهذا لا يليق بزعيم روحي وأكاديمي وقائد كنيسة ورجل دولة اسمها الفاتيكان، أن يترك الصدفة تتدخل في محاضرة مكتوبة مسبقا وقبل أن يلقيها داخل حرم جامعي..

أيضا نعلم من سيرة حياة البابا أنَ موضوع المحاضرة هو الموضوع المفضّل قديما وحديثا لديه ، أي التوفيق بين "العلم والدين" أو "العقل والعقيدة"، وتلك "مشكلة كنسية" قديمة جديدة، ومن هنا كان حديثه عن الإسلام في المحاضرة -على أفضل التفسيرات- من باب "المثال"، الذي أراد ذكره للقول إنَ التناقض (في زعم القائل) بين الدين والعقل يمنع الحوار مع الآخرين.

واستشهاده بمقولة قيصر بيزنطي من حقبة القرون الوسطى ومقدّمات فتح القسطنطينية آنذاك له مغزاه، فاختيار الاستشهاد له دلالته فقد كان باستطاعة البابا الكاثوليكي

ذي الأصل الألماني، المتحدث بالألمانية، لجمهور ألماني، على الأرض الألمانية.. كان باستطاعته لو أراد شيئا آخر سوى "مضمون" الاستشهاد، أن يأتي مثلا ببعض ما قال عن الإسلام القيصر الألماني غليوم الثاني قبل أقلّ من قرن واحد، بدلا من القيصر البيزنطي إيمانويل الثاني قبل ستة قرون، أو مثل آخر ما قال به جوتة، أشهر شاعر وأديب ألماني، أو سواهما – وسواهما كثير – من مشاهير الفلاسفة الألمان وغير الألمان في حقبة "التنوير" الأوروبية.

عموما ما يهمنا كما قلنا في البداية أن العبرة ليس بقصده ، وإنما بمضمون كلامه ، ومضمون كلامه يحمل هذه الشبهات التي سنحاول الرد عليها في الصفحات القادمة .

ثالثا: العلاقة بين العقيدة والعقل.

قارن البابا بين العقيدة المسيحية وبين العقيدة الإسلامية، فادعى أن الأولى تقوم على المنطق، وان الثانية منافية لأحكام العقل. وقد قال – فيما تعلق بعقيدة الإسلام – «إن الإرادة الإلهية في العقيدة الإسلامية لا تخضع لمحاكمة العقل». وسنحاول أن نركز إجابتنا في النقاط الآتية:

١_ هذا تصور خاطئ لـ(الألوهية ذاتها)، وليس لعقيدة الإسلام فحسب، ولو صدر عن ملحد لهان الأمر لأن للإلحاد مقولاته المعروفة.. أما أن يصدر هذا التصور عن (رجل دين) يؤمن بالله وقدرته ومشيئته وإرادته فهذا هو مبعث العجب، بل مبعث الفجيعة.

إننا نحسب أن البابا يؤمن بأن الله جل ثناؤه (أراد) أن يخلق إنسانا من أم فقط، أي بلا أب، وأنه سبحانه تجلى بإرادته المطلقة فخلق عيسى ابن مريم من أم دون أب:«إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون»(١)

((إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين. قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يفعل ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون))(٢)

---

(١) سورة آل عمران : ٥٩

(٢) سورة آل عمران : ٤٥_٤٧

هذا الـ(كُنْ).. بهذه الكلمة: (وفي البدء كانت الكلمة كما يقول الإنجيل).. بهذه الكلمة كان السيد المسيح عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم: كان معجزة في حمله، معجزة في ميلاده، معجزة في نطقه وهو في المهد، وكان نبيا رسولا.

بهذا الـ(كُنْ) خرق الله جل شأنه سنن الإنجاب العادي وقوانينه، فكيف تكون إرادة الله خاضعة للعقل في هذا الفعل الإلهي؟.. وهل من العقلانية: إخضاع إرادة الله لأحكام ومقاييس عقل خلقه الله؟!

_ إن من مقاييس العقلانية السليمة الرصينة _ ها هنا _: ألا تقاس إرادة الله وقدرته على إرادة البشر وقدرتهم، لأن القياس إنما يكون بين المتماثلات. وهذا أمر منتف بالنسبة لله عز وجل.. ثم إن من المقولات التي تجعل حجة الإلحاد متهافتة: مقولة: قياس قدرة الله بغيرها من قدرات خلقه.. ولذا نتعجب جدا من مقولة البابا «إن الإرادة الإلهية في العقيدة الإسلامية لا تخضع لمحاكمة العقل».

إن العقيدة الدينية في الله وإرادته وقدرته ومشيئته المطلقة هي (عقيدة واحدة) تنزلت بها الكتب جميعا، وهتف بها ودعا إليها الأنبياء والمرسلون كافة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وسائر إخوانهم «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»[١].. وجوهر الدين الذي شرعه الله لهؤلاء الأنبياء جميعا هو: «العقيدة في الله»: وجودا وذاتا وقدرة وإرادة ومشيئة مطلقة.. ومن صميم هذه العقيدة الواحدة الجامعة: أن نؤمن بأن الله (عرّفنا بنفسه على لسان رسله، وإننا لا نستطيع أن نعرف أسماءه وصفاته بغير هذا المصدر، وأن من العقل: الإقرار بعدم الاستطاعة.

٢ – إن دعوى البابا في نفي العقلانية عن الإيمان في الإسلام إنما هي مجرد دعوى بلا دليل، بل الدليل حاسم على ما يضادها. فالعقل في الإسلام هو مناط التكليف أو مناط الخطاب الديني للمكلفين: «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك الذي في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من

(١) الشورى : جزء من الآية ١٣

السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»[١].. وبقدر حظ الإنسان من العقل يكون حظه من الإسلام: فهما وعملا. بل نستطيع أن نقول: إن الإسلام جاء للعقلاء فقط ((كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون))[٢] فلا دين لمن لا عقل له.

٣_ إن علاقة الإسلام بالعقل هي علاقة عميقة، فالإسلام ركّز كل عقيدته وكل مفاهيمه وكل شرائعه على العقل، ولو درسنا القرآن الكريم دراسة دقيقة، لرأينا أن هناك عشرات، بل مئات الآيات التي تؤكد على العقل، وهذا أمر لا يحتاج إلى الكثير من التدقيق أو التعمق، بل هو واضح لمن سرّح نظره في بعض من آيات القرآن ،أو أدبيات الإسلام مما جاءت به السنّة الشريفة.

٤_ وفي موازاة ذلك، وأمام ما أثرناه في مسألة انطلاق الإسلام من قاعدة العقل، ندعو البابا إلى أن يقرأ بعض الآيات القرآنية التي تؤكد للآخرين أن المسألة من الناحية الثقافية بيننا وبينكم، هي أنكم إذا كنتم تقفون ضدَ التوحيد ومع الشرك فإننا نطلب منكم البرهان. نحن نقول لكل إنسان يخالفنا في الرأي، وهذا هو مفهوم القرآن: إنَ من حقه أن يخالفنا، ولكن عليه أن يقدم البرهان على ما يتبناه في مقابل تقديمنا للبرهان على ما نتبناه، حتى تكون المسألة بيننا مرتكزة على العقل والمنطق، لا على الظن والخيال وما إلى ذلك.

ولذلك قال تعالى: ((وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ))[٣]، على أي أساس تعتبرون الجنة لكم إن كنتم يهودا أو نصارى؟ وما هي الضمانة التي أعطاكم الله إياها؟

ثم يناقش القرآن هؤلاء الذين يتحدثون عن الشرك ((أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ))[٤]. ثم يستدل على

(١) البقرة : ١٦٤

(٢) سورة الروم : جزء من الآية ٢٨

(٣) سورة البقرة : ١١١

(٤) سورة الأنبياء : ٢٤

التوحيد، ولا يطلقه كفكرة لا تستند إلى بُرهان، فيقول: ((أمِ اتَّخذوا آلهةً من الأرضِ هُمْ يُنشِرون * لو كانَ فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفسدَتا)) ـ أي لو تعدّدت الآلهة، وانطلق كلٌ إله بحسب الخطة التي يخطط لها، والتي قد تختلف مع خطةِ الإله الآخر، فعند ذلك يحصل التنافر في ما بينهم، وتتحول المسألة إلى فساد ينطلق من تعدد الإرادات في حركة الكون والوجود ـ ((فسُبحانَ اللهِ ربِّ العرشِ عمّا يصفون))[1]. ويقول تعالى: ((يا أيُّها النَّاسُ قد جاءكُم بُرهانٌ مِن ربِّكُم))[2] والبرهان هو الدليل. ويقول تعالى: ((أمَّنْ يبدأُ الخلقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ومَنْ يرزقُكُم من السَّماءِ والأرضِ أإلهٌ مع اللهِ قُلْ هاتوا بُرهانَكُم إنْ كُنتُم صادقين))[3]. ثم يقول تعالى: ((ومَنْ يدعُ مع اللهِ إلهاً آخرَ لا بُرهانَ لهُ به فإنَّما حسابُهُ عندَ ربِّه))[4].ثم يؤكد على الناس الذين يدخلون في الحِجاج، وهو الجدال، أن ذلك لا بدّ من أن يكون على أساس علمي موضوعي ((ها أنتُمْ هؤلاءِ حاججتُمْ فيما لكُم به علمٌ)) ـ مما تملكون معرفته بشكل أو بآخر ـ ((فلِمَ تُحاجّون فيما ليس لكُم به علم))[5].

ويشير تعالى إلى أن حركة القيامة والحساب، تستند إلى إقامة الله تعالى للبرهان والحجة على البشر، ولا تنطلق الأحكام جزافاً، فيقول تعالى: ((ونزعنا من كلِّ أمةٍ شهيداً فقلنا هاتوا بُرهانكم)) ـ أي هاتوا الدليل ـ ((فعلِموا أنَّ الحقَّ لله)) ـ لأن البرهان كان دامغاً، والحجة كانت ساطعة ـ ((وضلَّ عنهُم ما كانوا يفترون))[6].

وفي حوار قوم إبراهيم(عليه السلام) وجدالهم له، قال لهم: ((أتحاجّونّي في اللهِ وقدْ هدانِ ولا أخافُ ما تُشركون به إلا أنْ يشاءَ ربّي شيئاً وسعَ ربّي كلَّ شيءٍ علماً)) ـ لأنّ الله هو الذي يملك القوّة كلّها، ويملك الأمر كلّه، لذلك أنا لا أخاف أصنامكم التي لا تضرُّ ولا تنفع ـ ((أفلا تتذكَّرون * وكيفَ أخافُ ما أشركتُم)) ـ وأنتم في

[1] سورة الأنبياء : ٢١ ، ٢٢
[2] سورة النساء : جزء من الآية ١٧٤
[3] سورة النمل : ٦٤
[4] سورة المؤمنون : ١١٧
[5] سورة آل عمران : ٦٦
[6] سورة القصص : ٧٥

مقابل ذلك ـ ((ولا تخافون أنكم أشركتُمْ باللهِ ما لمْ يُنزِّلْ به عليكُم سُلطاناً)) ـ وهو كناية عن البرهان والدليل الذي ينسجم مع معطيات العقل ونتائجه ـ ((فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمنِ إنْ كُنتُم تعلمون)) ـ ثم يختم الله تعالى ذلك بقوله: ـ ((الذين آمنوا ولمْ يلبسوا إيمانهُم بظلمٍ أولئك لهُمُ الأمنُ وهُم مهتدون * وتلك حُجّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِه...))[1]، فإبراهيم عندما تقدَّم إلى قومه، وإلى أبيه من قبل، قدَّم الحجة التي تجعل موقفه موقفاً مرتكزاً على الدليل.

وفي مجال آخر يقول تعالى، وهو يعرض للمنطق السليم الذي يقود إلى الإيمان بالتوحيد: ((ما اتَّخذَ اللهُ من ولدٍ وما كانَ معهُ من إلهٍ إذاً لذهبَ كلُّ إلهٍ بما خلق))[2]، بمعنى أنه لو فرضنا أنه كان هناك إلهان، فذلك يعني أن يكون هذا عنده جماعة وذاك عنده جماعة، أو لهذا خلق ولذاك خلق، ومن الطبيعي أن ينتج من ذلك خلافات، ما يفسد الكون بنتيجته.

والخلاصة، أن القرآن الكريم يركز على مسألة الدليل والحجة والبرهان، وينطلق بالحوار في المسألة الثقافية، سواء كانت عقيدية أو أمراً يتصل بالشريعة أو ما إلى ذلك مما جاء في الديانات.

وعلى هذا الأساس، قلنا للمسيحيين، وقلنا لليهود أيضاً في المسألة الثقافية، وحتى للذين يبتعدون عن الدين كلياً: ((هاتوا بُرهانكم إنْ كنتُم صادقين))[3]، تعالوا لننطلق بالحوار بيننا من خلال العقل والحجَّة والبرهان.

٥ ـ وإذا كان البابا قد حاول التأكيد في مقابل نفيه العقل عن الإسلام. أن المسيحية تختلف عن الإسلام في كونها دين العقل، فإننا لا ندري أي إيمان هو إيمان العقل؟ وقد قرأنا تصريحاً لبعض المفكرين المسيحيين في تعليل الجمع بين التثليث والتوحيد، بأن المسألة فوق العقل. لان الإيمان فوق العقل، لأنه ينطلق من القلب والروح بعيداً عن المعادلات العقلية. وفي المقابل، فـ العقيدة الإسلامية لا بدَّ من تخضع في أساسها للعقل، حيث

[1] سورة الأنعام : ٨٠ ـ ٨٣
[2] سورة المؤمنون : ٩١
[3] سورة البقرة : ١١١

إن العقل هو الذي يؤسس للإيمان، وهو الميزان الذي تقوَّم على أساسه الفكرة التي يُفترض الاقتناع بها والإذعان لها. حتى إن ما يدخل في إطار التعبُّد والتسليم، لا بد من أن يؤسس طريق الإيمان به من خلال العقل، فإننا عندما نؤمن بالعقل بصدق النبي، وأنه رسول الله، فإنّ العقل يقودنا إلى أن نصدّق ما جاء به، سواء فهمنا حكمته عندما نملك أدوات معرفته، أو لم نفهمه لأننا لم نملك تلك الأدوات. وبذلك يكون العقل هو المحور الذي تدور حوله كل القضايا التي تشكل مفردات الإيمان، سواء على مستوى العقيدة أو الشريعة أو المفاهيم أو ما إلى ذلك.

٦ـ إن التهمة القائلة بأن الإسلام غير مهتم بالعقلانية هي كمن ينكر ضوء الشمس لأنه لم يتم التأكيد في أي من الكتب السماوية على التعقل والتدبر بقدر ما يؤكد عليه القرآن الكريم وان الحضارة العلمية الباهرة للامة الإسلامية قد قامت على قاعدة الاهتمام بتوصيات الإسلام على أهمية التعقل والعلم والتدبر.

ولننظر إلى (مصادر المعرفة).. وكيف ربطها الإسلام بـ(العقل)؟

فمن يتدبر هذا الكتاب العظيم (القرآن الكريم)، يرى بوضوح أن العقل: هو العملة الصحيحة الرائجة في دين الإسلام.. وأن الإسلام والعقل قرينان لا يفترقان.

فمصادر المعرفة في الإسلام يمكن إجمالها في ثلاثة:

أ ـ الوحي

ب ـ الحس

جـ ـ العقل الذي يعقل الوحي والحس

«أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى»[1]. «قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون»[2]. «وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»[3].

فالعقل (وهو المصدر الثالث للمعرفة) هو (ملتقى الوحي والحس).فالوحي لا يفهم إلا بالعقل: «إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم

---

١) سورة الروم :جزء من الآية ٨

٢) سورة الأنعام : جزء من الآية ٥٠

٣) سورة الرعد : ٣

تعقلون»[1]. والحس لا يقبل إلا بالعقل: «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»[2].

فالإسلام دين العقل والبرهان الصادق وكم سبق شرح قوله تعالى : «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»[3]، وعلى هذا الأساس قام علم الكلام للاستدلال العقلي على قضايا العقيدة. ولو تصفحنا القرآن الكريم لوجدناه حافلا بالآيات التي تحث على الحكمة «يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا»[4]، وتدعو إلى التعقل «إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون»[5]، والابتعاد عن الظن «وإن الظن لا يغني من الحق شيئا»[6]، وعن الهوى «ومن أضل ممن اتبع هواه»[7]. وتدعو إلى العلم «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»[8].

ولقد كان لتلك الآيات الكثيرة التي تحث على العلم والمعرفة الأثر الحاسم في إثراء العقل المسلم، وإطلاق قدراته الكامنة لاكتشاف حقائق الأشياء، وبناء نهضة علمية وحضارية لم يعرف العالم لها مثيلاً إلا في العصر الحديث.

يقول الدكتور / أحمد الطيب [9] " إن العقل في فلسفة الإسلام هو الأساس الذي يعتمد عليه القرآن في خطاب الناس. ويعول عليه تعويلا تاما في فهم أمور التشريع، ومنزلة العقل في القرآن يعرفها الصبيان في كتاتيب القرى والنجوع، لأن تلاوة القرآن تثبت هذا المعني في بساطة ووضوح، وبصورة ينفرد بها

---

١) سورة الزخرف : ٣

٢) سورة البقرة : ١٦٤

٣) سورة البقرة : ١١١

٤) سورة البقرة : جزء من الآية ٢٦٩

٥) سورة النحل : ١٢

٦) سورة النجم : جزء من الآية ٢٨

٧) سورة القصص : جزء من الآية ٥٠

٨) سورة الزمر : جزء من الآية ٩

٩) مقال بعنوان العقيدة والعقل وبابا الفاتيكان جريدة الأهرام المصرية ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٦م

... القرآن عن سائر الكتب السماوية الموجودة بأيدينا، وإذا كنا نجد في الكتب السماوية ما يشير إلي شأن العقل صراحة أو ضمنا فإن فيها ما يمكن فهمه علي أنه زراية بالعقل وحط من شأنه، بل فيها أيضا ما يفهم منه التحذير من العقل، وإن حيائي ليمنعني من أن استرسل في هذه المقارنة.. ولكن يكفي أن أقول: إن مواد العقل والفكر والنظر والفقه بمشتقاتها وردت في قرآن المسلمين أكثر من ١٢٠ مرة في نصوص صريحة تدعو الناس إلي استخدام العقل بكل وظائفه وقواه. سواء في العلم بالله تعالي أو العلم بالكون والإنسان.. وربما كان القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يجد فيه القارئ تفرقة – مدهشة – بين مرتبة العلم والحق من جانب، ومراتب الشك والظن من جانب آخر. وأعتقد أن قداسة البابا – وهو في طليعة علماء الفلسفة واللاهوت – يعلم جيدا أن الإيمان بالله تعالي وبصفاته العليا – عند المسلمين – ينبني علي دليل عقلي لا علي تسليم وتلقين، وأن وجه دلالة الخوارق والمعجزات علي صدق الأنبياء هو العقل وليس الإيمان.. وأن القاعدة التي ترتكز عليها علوم العقيدة في الإسلام تقرر أنه إذا تعارض الشرع والعقل، قدم العقل وأول الشرع ويعلم قداسة البابا أن الفلاسفة والمتكلمين المسلمين بذلوا في هذا الميدان جهودا علمية جبارة، وتركوا من ورائهم تراثا عقليا مازال ينتزع إعجاب أساتذة الغرب ومفكريه حتى لحظة كتابة هذه السطور .

اسمح لي قداسة البابا بأن أتحدث إليكم باعتباري أستاذا في علوم العقيدة والفلسفة الإسلامية، يخاطب أستاذا وعالما ضليعا في علوم الفلسفة واللاهوت المسيحي – وبعيدا عن البابوية وقداستها –: ألا تتفقون معي في أن المسيحية هي أحفل الأديان بخوارق العادات وأكثرها اعتمادا علي المعجزات في إيمانها بالمسيح عليه السلام! وهل المعجزات إلا حوادث وتصرفات تتجاوز حدود العقل وتصطدم بشرائع الكون ونواميسه!! ثم ما هي أدلة العقول التي يمكن أن أعثر عليها في الأناجيل للتصديق بسيدنا عيسي عليه السلام؟! أليست هي الخوارق والخوارق وحدها!! وماذا كانت الأدلة التي أعتمد عليها

التلاميذ الإثنا عشر الذين أرسلهم يسوع لهداية الناس؟! أليست هي شفاء المرضي، وإحياء الموتي من قبورهم، وإبراء الأبرص وطرد الشياطين والأرواح النجسة!! كما يخبرنا الإصحاح العاشر في إنجيل متي!! ثم ألا تتفق معي في أن الفيلسوف الألماني كانت الذي ورد ذكره في سياق محاضرتكم إنما أحال ملف الاعتقاد المسيحي برمته إلي العقل العملي، لأنه لم يستطع أن يؤسس هذا الاعتقاد علي أساس من العقل النظري وقال قولته الشهيرة:لقد اضطررت أن أرفع المعرفة لكي آخذ مكانا للإيمان، بينما أجمع فلاسفة المسلمين – وكما تعلمون – علي تأسيس الاعتقاد الإسلامي علي العقل والعقل وحده، يحفزهم إلي هذه العقلانية عشرات الآيات القرآنية التي توصل العقل كأساس للإيمان في أكثر من ١٢٠ موضعا كما ذكرنا.. بل تحفزهم الآية التي تقول فاعلم أنه لا إله إلا الله وليس: فاعتقد أو آمن أنه لا إله إلا الله.. ومالي أذهب بعيدا وهذا هو القديس أنسليم يقول:يجب أن تعتقد أولا بما يعرض علي قلبك دون نظر.. ولكم أن تقارنوا بين الإيمان المسيحي الذي يشترط عدم النظر العقلي وبين الإيمان الإسلامي الذي يشترط سبق النظر العقلي علي كل خطوة في مشوار الإيمان. ووقتها سنعرف إن كان الإسلام دين عقل أو دين خوارق مضادا للعقل ومضادا لجوهر الله .

ومحاضرتكم نفسها ليست إلا تجسيدا لأزمة حقيقية بين الدين في منظوركم وبين العقل والعقلانية، فعنوانها هو: العقيدة والعقل والجامعة.. بما يشي بأن هذا الثالوث ثالوث بين متضادات تتطلع إلي المصالحة والمواءمة، وفي بدايتها تؤكدون علي هذه الأزمة حين قلتم: إن صيحات جامعية تتساءل: كيف يمكن المحافظة علي عقلانية الجامعة وبها كليتان تتحدثان عن لامعقول غير موجود هو الله..ومن وجهة نظري فإن الذهنية الغربية التي تتقاصر عن إدراك الإلهيات، وتنزل كل متعال إلي الأرض، وتحصر معيار الذكاء الإنساني في الصناعة والاختراع المادي هي المسئولة عن تضخيم الفجوة بين العقل والإيماني المسيحي.. وتحضرني في هذا المجال الحكمة التي تقول: إن

المسيحية حين انتقلت إلي روما ترومت النصرانية ولم يتنصر الروم ونحمد الله أن المسيحية الشرقية لا تزال تحتفظ بتقليدها وموروثها الحقيقي. ولعلكم تتفقون معي في أن الفكر المسيحي في عصره الوسيط كثيرا ما جنح لافتعال خصومه حادة مع العقل ومع العلم أيضا، وأن العقلانية التي تصالح معها إنما كانت بعضا من رشحات العقلانية الإسلامية واليونانية، التي حفظها المسلمون في ترجماتهم.. ولعلكم تسلمون أن اللاهوت المسيحي لعب دورا تاريخيا معلوما في تعطيل مسيرة العلم في أوروبا، وأن العقلانية الأوروبية لم تتقدم إلا بعدما أدارت ظهرها للاهوت ورجاله))

رابعا : دعوى انتشار الإسلام بالسيف.

كان البابا نفسه قد ألقى كلمة ليكون في حيطة من أمره. فكونه عالماً دينياً جدياً ومشهوراً، فإنه لا يستطيع أن ينقض النصوص المكتوبة ويكذّبها. لذلك، اعترف بأن القرآن قد حرّم بوضوح نشر العقيدة باستخدام القوة. فقد اقتبس من سورة البقرة، الآية ٢٥٦ (من الغريب القول بأنه معصوم عن الخطأ بصفته البابا، وأخطأ وقال الآية٢٥٧) التي تقول: "لا إكراه في الدين".

كيف يمكن للمرء أن يتجاهل مثل هذا التصريح الواضح والجلي؟ لكن البابا يجادل بأن النبي محمد كان قد جاء بهذه الآية عندما كان لا يزال في بداية رسالته، وكان لا يزال ضعيفاً لا حول له ولا قوة، لكنه عندما اشتد عوده أمر أتباعه باستخدام السيف لنشر العقيدة.

نشر العقيدة بالسيف هكذا قال وهكذا تعلق أسلافه بهذه الفرية طوال قرون عديدة ، و رددها المجادلون النصارى كثيراً ، و تمسك بها المتأخرون منهم لماذا ؟

لأن القرن الأول من عمر الأمة الإسلامية لم ينته إلا و قد أضحت الأمة المسلمة في انتشارها على وجه الأرض كالنار سرت في الهشيم ، فقد تحولت الأمم إلى الإسلام و دخل الناس في دين الله أفواجاً، و امتد الوجود الإسلامي في فترة وجيزة فملأ ما بين الصين و الأندلس.

و حار النصارى في فهم هذه الظاهرة إذ لا تفهم إلا بالاعتراف

بأن هذا الدين حق وافق فطرة الناس و عقولهم فأذعنوا له .

و هروباً من هذه الحقيقة التي نشرت الإسلام في ربوع كانت تحسب قلاعاً للنصرانية قال النصارى بأن الإسلام دين قام على السيف ، و به انتشر، و أرادوا من خلاله طمس تلك الحقيقة الناصعة.

والحق نلخصه في النقاط الآتية :

١_ أن المسلمين لم يأمروا أحداً باعتناق الإسلام قسراً ، كما لم يلجئوا الناس للتظاهر به هروباً من الموت أو العذاب ، إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المكره لا قيمة له في أحكام الآخرة ، وهي التي يسعى لها كل مسلم ويحفد ، ولم يكرهون الناس على الإسلام ولم يجعل الله إليهم وإلى الأنبياء من هداية البشر سوى البلاغ ، وكيف يكرهون الناس على الإسلام و القرآن يقول ((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي))[1]، و يقول : ((و قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها))[2]
و يقول تعالى : ((قل الله أعبد مخلصاً له ديني * فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين))[3].

و عندما خرجت كتائب الجهاد الإسلامي ما كان خروجها لقهر الناس و إجبارهم على اعتناق الإسلام إنما كان لتحرير الإنسان و تحييد القوى الظالمة التي قد تحول بينه و بين الإسلام.

وأوضح القرآن بجلاء مبررات الجهاد الإسلامي((وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله و المستضعفين من الرجال و النساء و الولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها و اجعل لنا من لدنك ولياً و اجعل لنا من لدنك نصيراً))[4]،و يقول تعالى ((قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين *وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير *وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى و نعم النصير))[5].

[1] سورة البقرة : جزء من الآية ٢٥٦

[2] سورة الكهف :جزء من الآية ٢٩

[3] سورة الزمر : الآيتان ١٤، ١٥

[4] سورة النساء : ٧٥

[5] سورة الأنفال : ٣٨_ ٤٠

٢_قال المسيح: "من ثمراتهم يعرفون". إذ يجب الحكم على الطريقة التي عامل فيها الإسلام الديانات الأخرى وذلك بإجراء اختبار بسيط: فكيف تصرف الحكّام المسلمون منذ أكثر من ألف سنة، عندما كانوا يملكون القوة ويستطيعون "تشر الدين بالسيف"؟ حسناً، فهم لم يفعلوا ذلك.فقد دام حكم المسلمين على اليونان قروناً عديدة. لكن هل أصبح اليونانيون مسلمين؟ هل حاول أحد أن يرغمهم على اعتناق الإسلام؟ على العكس، فقد تبوأ المسيحيون اليونانيون أعلى المناصب في الإدارة العثمانية. وعاش البلغاريون والصرب والرومانيون وشعوب دول أوربية أخرى لفترات متفاوتة تحت حكم الدولة العثمانية، وتمسكوا بدينهم المسيحي. إذ لم يرغمهم أحد على اعتناق الإسلام، وظلوا جميعهم مسيحيين أتقياء.

الإسلام حرّم صراحة ممارسة أيّ اضطهاد على "أهل الكتاب". فقد كان اليهود والمسيحيون يتمتعون بمكانة خاصة في المجتمع الإسلامي. كانوا يتمتعون بجميع الحقوق . كانوا يدفعون الجزية، لكنهم كانوا معفيين من الخدمة العسكرية – وهذه مقايضة لاقت ترحيبا كبيراً لدى الكثيرين من اليهود والنصارى .

٣- بنى البابا دعواه في انتشار الإسلام بالسيف على دعواه بعدم العقلانية في الإسلام، ذلك أن الدين الذي لا يحترم العقل، يتوسل إلى مقاصده بالسيف، لا بالاقتناع.. فهل هذه دعوى صحيحة.. لا.. لا.. بدليل أن المسلمين ما حملوا السيف إلا للدفاع عن وجودهم المعنوي والمادي (وهذا حق مشروع لأمم الأرض جميعا).. وبدليل: أن العلاقة بين الإنسان والله – في الإسلام – تقوم على الحب، والحب لا يأتي بالسيف قط.. وبدليل أن كل فعل أو أمر يتم بالإكراه إنما هو فعل باطل بيقين في منهج الإسلام.

٤_ لندع تلك البراهين كلها التي تدحض دعوى انتشار الإسلام بالسيف، ولنركز على برهان (واقع ماثل) ملموس، يعرفه البابا نفسه تمام المعرفة من خلال التقارير السنوية بل اليومية التي ترصد حركة انتشار الإسلام في العالم. إن البابا يعلم أن ألوف الناس- مسيحيين وغير مسيحيين –

يدخلون في الإسلام، وبطريقة مستمرة، بل انه في الولايات المتحدة نفسها، وبعد أحداث ١١ سبتمبر بالذات: يدخل في الإسلام عشرون ألف أمريكي كل عام، معظمهم من الذين ظفروا بحظوظ عالية من التعليم.. فمن ذا الذي أكره هؤلاء بـ«السيف» لكي يعتنقوا الإسلام؟.. لا سيف ثم ولا سياف، وإنما هو (الاقتناع الحر): اقتناع العقل الحر واقتناع الضمير الحر، واقتناع اختيار المصير الحر.إن هذه (الحجة الواقعية) كافية ـ وحدها ـ لنقض دعوى: إن الإسلام قد انتشر بالسيف.

٥_ مفاد هذا الكلام للبابا أن المسيحية هي دين المحبة والسلام. وأنها علي نقيض الإسلام انتشرت بالكلمة الطيبة .وطبعا فليس منا من يستطيع أن ينكر أن هذا الكلام من الحقائق التاريخية التي لا غبار عليها.

يقول الدكتور / أحمد الطيب عن تأويل البابا للآية الكريمة ((لا إكراه في الدين)) ((فرغم أن هذه الآية نص صريح قاطع علي سماحة الإسلام وأخذه بمبدأ حرية الاعتقاد.. إلا أنها خضعت في محاضرة البابا لتأويل مناقض للعلم والتاريخ، انتهي إلى أن هذه الآية لا تدل علي تسامح الإسلام مع عقائد الآخرين، بل تدل علي تسامح الضعيف العاجز الذي لا حيلة له مع من هو أقوي منه.. والحجة التي يقدمها البروفيسور الكاثوليكي ـ الذي نقل عنه البابا ـ هي أن سورة البقرة التي جاءت فيها آية: لا إكراه في الدين من السور الأولي المتقدمة، أيام أن كان النبي ضعيفا ومهددا ولا سلطان له.. مع أن سورة البقرة سورة مدنية نزلت بالمدينة، ولم تكن من سور العهد المكي الذي يمثل ضعف المسلمين وقلة حيلتهم. والعهد المدني هو عهد كان المسلمون فيه يقاومون الوثنية والشرك ويتصدون لاعتداءات المشركين، ويقاتلونهم وينتصرون عليهم.. ويبدو أن البروفسور الذي استند إليه البابا لا يطيق الصبر علي تنظير الحقائق العلمية ومقارنتها بالظروف التاريخية، وإلا فكيف يستقيم الزعم بأن سورة البقرة تعكس عهد الضعف بالنسبة لنبي الإسلام، وتشتمل في الوقت ذاته علي تنظيم المجتمع وترتيب قوانينه وتحريم الربا والصيام

وتنظيم الأسرة وتبين لوائح القتال مع المعتدين، وكيفية الدفاع عن الدولة والمجتمع.. هل هذه الصورة تمثل عهد ضعف واستكانة؟! وأين هذا العقل الذي يمكن أن تستقيم فيه هذه النقائض؟!))

معيار الحرية العقدية من منطلق الآية التي ظنها نزلت بسبب الضعف والخوف تفتح للبشرية أفقا يصعب أن يفهمه شر الناطقين المتخرصين والخائضين خوض الجاهلين . فالتجربة الإسلامية لم تغير القبلة بالصدفة بل حررت البشرية من نظرية الشعب المختار وتأليه الإنسان لتؤسس للاخوة الآدمية بالرسالة الموجهة لكل البشرية بل ولكل الكائنات بمبدأي : أينما تولوا فثم وجه الله رمزا للكونية وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا رمزا للاخوة لذلك فسعي المحاضر للحد من آية حرية المعتقد بسبب نزولها وظرفه من سوء طالعه لأنه يبين جهله وجهل مراجعه العارفين الذين أرشدوه.

فقصد الآية لا يمكن فهمه إنشائيا بمعنى الإنشاء من عدم كالأمر بالممكن أو بالمستحيل حتى تكون ظرفية تعبيرا عن الضعف والخوف؟ ألم يأت النهي عن الإكراه فيها نتيجة لتقرير حقيقة خبرية مفادها امتناع الإكراه في الدين لمن كان مؤمنا حقا حقيقة تقال لتذكير من لا يعلمها إذا أقدم علي إكراه المؤمنين كما يفعل الطغاة؟

إن عبارة لا إكراه في الدين ليست أمرا غفلا بل هي لمن يعرف أساليب القرآن الكريم نتيجة استدلال صارم، نتيجة تقرر ثمرة الإيمان الحقيقي إذ هي تقوم علي دليل يثبت استحالة الإكراه في الدين ولا تقتصر علي النهي عن الإكراه فيه:

وهذا الدليل صورته البلاغية مبنية علي الإيجاز القرآني المعجز لم يبق نص الآية منه إلا تحقق الشرط والنتيجة بترتيب عبارته تقدم النتيجة علي تحقق الشرط مع إضمار العلاقة الشرطية بمقدمها الشرط وتاليها المشروط ، وكل ذلك من بلاغة

القرآن التي لا يدركها من يجهل منه اللسان .ف لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي هي في الحقيقة نتيجة لشرطية متصلة موجبة المضمر منها هو نص العلاقة الشرطية الكامل إذا تبين الرشد من الغي امتنع الإكراه في الدين (والمعلن هو النتيجة) لا إكراه في الدين (وتحقق الشرط) قد تبين الرشد من الغي وكل ذلك في القسم الأول من الآية القسم الذي يمكن تحليل صورته علي النحو التالي:

العلاقة الشرطية) مضمرة :(إذا تبين الرشد من الغي) مقدم (امتنع الإكراه في الدين) تا(ملاحظة تحقق الشرط) مضمرة :(تبين الرشد من الغي بنزول القرآن الكريم وتعريف الذات الإلهية في آية الكرسي المتقدمة علي هذه الآية .

النتيجة :لا إكراه في الدين ومعناه امتنع الإكراه في الدين .

ولو حلل المحاضر العلاقة بين قسمي العبارة لا إكراه في الدين و قد تبين الرشد من الغي لتجلي له أنها تضمر فاء التعليل قبل قد لأن مفاد القول هو :لا إكراه في الدين) ف(قد تبين الرشد من الغي . فيكون التلو للتعليل لا إكراه لأنه تبين وليس لمجرد التوالي الزماني لا إكراه بعد أن تبين : نزول القرآن والرسالة الخاتمة يجعلان الإنسان يتبين الرشد من الغي فيدرك إدراكا ضروريا امتناع الإكراه في الدين .وإذن فالأمر بعدم الإكراه مبني علي تقرير حقيقة حصلت فعلا حدوث الفعل التاريخي بنزول القرآن الذي يبين الرشد من الغي فكانت سببا في حقيقة معرفية تحصل دائما في وعي الإنسان كلما توفرت شروطها .وإذن فالأمر هنا ليس مجرد إنشاء يمكن أن يعبر عن ضعف وخوف وسرعان ما يزول بزوالهما .

وبذلك نفهم لم يتكلم القرآن الكريم دائما عن التعدد الديني بوصفه سنة من سنن الله التي لن تجد لها تبديلا أو تحويلا واعتبر كل محاولة لمنعه خروجا عن هذه السنة .فالله لو أراد وحدة الأديان في التاريخ لجعل الناس

أمة واحدة رغم الإخبار بأنهم أمة واحدة في المثال المصحوب بالنهي عن السعي لجعلهم أمة واحدة في الواقع :لأن الدين عند الله الإسلام في الواجب وهو متعدد في الواقع حتى يسلم من يسلم وهو مختار ويكفر من يكفر وهو مختار .ذلك أن المسافة بين الحاصل في التاريخ والواجب في المثال هي فسحة الفعل الحر في الاعتقاد الذي يكتمل عندما يقترب التاريخ من المثال فيحصل الإدراك الجازم بامتناع الإكراه في الدين :من دون ذلك لن يكون تبين الرشد من الغي ثمرة للاجتهاد وحماية حرية المعتقد ثمرة للجهاد.

لذلك فقد فرض القرآن علي المسلمين حماية حرية المعتقد في كل الأديان بالجهاد وكلف الدولة الإسلامية بحماية أصحاب ديانات ثلاث يعترف بها حمايتهم في ممارسة طقوسهم اثنان منها لهما رسالة منزلة حتى وإن كنا نعتقد أنهم حرفوها) أهل الكتاب من اليهود والنصاري (والثالث دين طبيعي) الصابئة .(كما وعد القرآن أصحاب هذه الأديان بعدم الخوف والحزن مثلهم مثل المسلمين إذا آمنوا وعملوا صالحا .وباقي الأديان غير المعترف بها أعني المجوسية وكل أصناف الشرك وقف القرآن من أصحابها موقف الإرجاء في ما يختلفون فيه مع المسلمين .ومن ثم فهو لم يأمر بمنعها حتى وإن لم يأمر بحمايتها كما فعل مع الأديان الثلاثة المعترف بها .وكل هذه الحقائق لا تحتاج إلي دليل أو إحالة لأن الآيات التي تنص عليها يعلمها كل من قرأ القرآن الكريم حتى مترجما:

٦ـ ونحب أن نؤكد هنا على أن القتال شريعة جعلها الله لإبطال الباطل و إحقاق الحق و حماية الدين ((و لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع و صلوات و مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً))(١).

في التوراة أيضا التي يعرفها البابا جيدا (وهي محرفة بالطبع) أمر بقتل كل من يذبح للأوثان(انظر

(١)سورة الحج : جزء من الآية ٤٠

سفر الخروج ٢٠/٢٢) ، وأمر بقتل ٢٣ ألف رجل عبدوا العجل (انظر سفر الخروج ٣٢/) ، وأمر بقتل من عمل بالسبت (انظر سفر الخروج ٢/٣٥) .

بل تحكي التوراة عن مذابح يشيب لها الولدان ارتكبها بنو إسرائيل في حربهم المقدسة ضد أقوام من الوثنيين ، فمما تنسبه التوراة لله عز وجل أنه قال لموسى " إذا دنوت من القرية لتقاتلهم ادعهم أولاً بالصلح...فأما القرى التي تعطى أنت إياها فلا تستحي منها نفساً البتة، و لكن أهلكهم إهلاكاً كلهم بحد السيف ...... كما أوصاك الرب إلهك " (سفر التثنية ١٠/٢٠-١٧) فالنص يتحدث عن أحكام القتال التي شرعت لبني إسرائيل، و في نص آخر " إذا أدخلك الرب إلهك الأرض التي تدخل لترثها و بيد الشعوب الكثيرة من قدامك ....سبعة أمم أكثر منكم عدداً و أشد منكم ، و أسلمهم الرب إلهك بيدك ، فاضرب بهم حتى أنك لا تبقى منهم بقية ، فلا تواثقهم ميثاقاً و لا ترحمهم ، و لكن فافعلوا بهم هكذا : مذابحهم فاخربوها ، و اكسروا أصنامهم..." (سفر التثنية ٧/ ١-٥) فعلم من النص أن بني إسرائيل أمروا بقتل سبع أمم أكثر عدداً منهم .

و تتحدث التوراة أيضاً عن تنفيذ بني إسرائيل للأمر كما في سفر المجازر (يشوع) فقد قتلوا حتى النساء و الأطفال و الحيوان ، و في سفر القضاة أن شمشون أخذ فك حمار... و قتل به ألف رجل (القضاة ١٥/١٥) ، و تذكر التوراة أن داود لما سار إلى رابة، و انتصر على أهلها صنع فظائع " و الشعب الذين كانوا فيها أخذهم و نشرهم بالمناشير و داسهم بنوارج حديد ، و قطعهم بالسكاكين ، و أمرّهم في أتون الآجر، كذلك صنع بجميع قرى بني عمون"(صموئيل(٢) ٣١/١٢).

ونقول للبابا مثل هذه الفظائع لم يقع في جهاد المسلمين لأعدائهم فما كانوا يقتلون النساء و لا الأطفال و لا الدهماء من الناس ، و يجدر أن نذكر بوصية الصديق حيث قال لأسامة بن زيد وجنده:"لا تخونوا و لا تغدروا و لا تغلوا ولا تمثلوا ، و لا تقتلوا طفلاً و لا شيخاً كبيراً و لا امرأة ، و لا تعزقوا نخلا و لا تحرقوه ، و لا تقطعوا شجرة مثمرة ، و لا تذبحوا شاة و لا بقرة

و لا بعيراً إلا للأكل.و إذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم و ما فرغوا أنفسهم له...."

و في الإنجيل أيضا أكد المسيح _ عليه السلام _ على مشروعية القتال (هذا إن كان صحيحا والبابا طبعا يؤمن بصحته) فقال: " لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض،ما جئت لألقي سلاما ، بل سيفاً"(متى ١٠/٣٤) ، و طلب من أتباعه الاستعداد للدفاع عنه و القتال: " من له كيس فيأخذه ، و من ليس له فليبع ثوبه و يشتري سيفاً " (لوقا ٢٢/٣٦)، و قال :" أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم ، فأتوا بهم إلى هنا ، و اذبحوهم قدامي " (لوقا ١٩/٢٧) ، لكن ذلك لم يتم للمسيح لأن دعوته لم تستمر أكثر من سنتين ، ولم تواته القوة لذلك بل أعجله الحكم عليه .

وأما المقالة التي يتشدق بها دعاة السلام المسيحيين" لا تقاوموا الشر ، بل من ضربك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ، و من أراد أن يخاصمك يأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً..."(متى٥/٣٩-٤٢) فهذا محض سراب لم يحققه النصارى بكنائسهم المختلفة يوماً واحداً فالنصارى ينطبق عليهم المثل القائل " رمتني بدائها و انسلت ". إذ أن سبب انتشار النصرانية هو السيف الذي سلطته على الشعوب المختلفة ، و قد بدأ سيف القهر عندما تنصر قسطنطين الوثني في بدايات القرن الميلادي الرابع و قال له بطريرك القسطنطينية : " أعطني الدنيا و قد تطهرت من الملحدين أمنحك نعيم الجنة المقيم ".

ولو نظرنا إلى عصرنا الحاضر لما احتجنا كثيرا لقراءة التاريخ ؛ فالتاريخ أسود، والواقع أشد سواداً فما يزالون يحملون أحقادهم ضد المسلمين في كل مكان، وضد الإنسانية التي يتغنون بها، وجنوب السودان، وصبرا وشاتيلا، والبوسنة والهرسك ،والفلبين،والشيشان، وكوسوفا، وأبخازيا، وأذربيجان ، والعراق تشهد على دمويتهم وحقدهم؛ فقد خرجوا من جحورهم، واستأسدوا عندما غابت الليوث لكن سيأتي يوم الحساب قريبا.. ومهما طال ليل الباطل فلا بد له أن يندحر وتشرق شمس الحق من جديد.

٧_ في النص الذي اقتبسه البابا : يسأل الإمبراطور محاوره قائلا: «أرني شيئاً جديداً أتى به محمد،

فلن تجد إلا ما هو شرير ولا إنساني، مثل أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف»·

والغريب أن البابا الذي اقتبس هذا النص الاستفزازي لم يقم بمراجعة نقدية له، بل راح يبني عليه آراءه الأخرى التي وردت في المحاضرة، أي أن الأمر تجاوز حدود الاقتباس الصرف إلى اقتناع بما ورد في مضمون النص نفسه. لقد كان البابا أستاذاً جامعياً، وألقى محاضرته في حرم جامعي، ويشترط والحال هذه أن يلتزم بشروط المنهج الموضوعي، فهل من الموضوعية في شيء أن يرجع في فهم الإسلام إلى شخص معاد للمسلمين، بل في حالة حرب معهم، ويترك كتب التاريخ الإسلامي الكبرى التي دونت سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتاريخ الدعوة المحمدية؟

لو كلف البابا نفسه الرجوع إلى المصادر الإسلامية الأصيلة لرأى أن المسلمين الأوائل كانوا هم المعتدى عليهم، وقد صبروا على الأذى والعذاب الذي صبه عليهم طغاة قريش، ولما وصل الأمر إلى حد لا يطاق هاجر بعضهم إلى الحبشة ثم هاجر القسم الآخر، ومعهم النبي الأكرم (صلى الله عليه وسلم)، إلى المدينة. لكن الأعداء لم يتركوهم وشأنهم بل لاحقوهم إلى هناك، فنزلت الآية الكريمة التي أذنت لهم بالقتال إذا قوتلوا. قال تعالى: «أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله». ومع ذلك حينما فتح المسلمون مكة عامل الرسول (صلى الله عليه وسلم) أعداءه الذين آذوه وأجبروه على الهجرة من بلده بالعفو والرحمة، وتلك أخلاق النبوة التي تحمل الرحمة للناس «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»[١].

يقول الدكتور / أحمد الطيب في مقالته سالفة الذكر.((أما المغالطة المكرورة والمملولة أيضا، والتي تقول إن الإسلام جاء بالسيف وبالعدوان فإني أستسمح البروفيسور الكاثوليكي خوري في أن أذكره بأن نبي الإسلام لم يقل لنا في القرآن:لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما علي الأرض. ما جئت لألقي سلاما بل سيفا.. فإني جئت لأفرق

---

(١)سورة الأنبياء : ١٠٧

الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها.. إلخ ولم يأمرنا نبي الإسلام بأن نتعامل مع أعدائنا بأن:نقتل جميع الرجال والنساء والأطفال والرضع والبقر والغنم والإبل والحمير.. وسعادة البروفيسور الكاثوليكي أعلم مني بهذه النصوص وبمن نسبت إليه، وفي أي الكتب المقدسة تقرأ وتتلى.. وهاهنا حوار عميق يمنعني ديني من الانجراف إليه.. وأكتفي بالإشارة إلي أن النساء والأطفال والرضع والبقر والغنم.. إلخ. يحرم قتلهم في شريعة الإسلام، حتى وهم في معسكر العدو.. كما أشير إلي أن ما يحدث الآن من وحشية في تدمير البيوت علي أصحابها من رجال ونساء وأطفال وحيوانات إنما هو أثر هذه النصوص التي خلقت حضارات بالغة القسوة في التعامل مع الضعفاء والمستضعفين.. ومن المؤسف أن يروج قداسة البابا اقتباسات يعلم في قرارة نفسه أنها أكاذيب وإسقاطات من أديان أخري علي الإسلام الذي تحرم شرائعه حتى حرق الزرع وقلع الأحجار وقتل الحيوان في السلم وفي الحرب علي السواء)).

ويقول الشيخ / محمد الغزالي : ((هناك قضية يثيرها دائما أولئك الناس يكيدون للإسلام منذ أيامه الأولى ..من اليهود وغير اليهود ، ممن يرون في الإسلام خطرا على أطماعهم ، أو إضعافا لسلطانهم .

وتقوم هذه القضية على دعوى أن الإسلام دين قام على القوة ، واستند إلى السيف في نشر مبادئه وتعاليمه ، وأنه حمل الناس حملا عليها ، ولولا هذه القوة القاهرة لما قدر لهذا الدين أن يقوم ، ولو قام لما كان له هذا العدد العديد من الأتباع المؤمنين ..

هذه هي القضية التي كثيرا ما يتخذ منها ذوو النوايا الخبيثة سبيلا إلى الطعن على الإسلام والنيل منه ، وإظهاره بمظهر النزعات البربرية التي تهجم على الناس فتسلبهم حرية الرأي فيما يحملون عليه من قبل الغزاة الفاتحين .

وعندي أن غاية هذه الدعوى لا تقف عند تشكيك الناس في هذا الدين وصرفهم عنه ، فإنها من هذه الناحية لا تستند إلى منطق ، ولا تقوم على حجة ، ولا تقع من العقل موقع الإقناع والاطمئنان ، حتى عند أشد الناس عداوة للاسلام وكيدا له.

ذلك أنه لو كان الأمر أمر قوة وحدها لما كان لهذه الدعوى وجه تظهر به ، وخاصة بعد أن بلغ من الذيوع ، وبعد أن قطع من عمر الزمن قرابة أربعة عشر قرنا ، فإن هذه القوة إن تكن أقامته في أيامه الأولى فإنه يكون من غير المعقول أن تقوم هذه القوة تلك القرون إلى جانبه تسنده وتحول بين الناس وبين الخروج منه .

فما عرف الناس قوة تظل حارسة ساهرة لمبدأ من المبادئ ، أو نزعة من النزعات أكثر من سنوات معدودة ، أما أن تظل هذه القوة قرونا متطاولة من الزمن فذلك ما لم يكن ولن يكون أبدا .

فإن القوة إنما تخدم غرضا ذاتيا يعيش في نفس إنسان أو جماعة من الناس ، ولن تتجاوز حياتها بحال حياة هذا الإنسان أو تلك الجماعة)).[1]

(1) الاستعمار أحقاد وأطماع : طبعة دار الكتب الإسلامية الثالثة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣ م صـ ١٤٢، ١٤٣

خامسا : دعوى أن النبي محمدا لم يأت إلا بما هو سيئ وغير إنساني:

في شهر ربيع الأول لسنة ثلاث وخمسين قبل الهجرة كان استهلال وليد عربي في مكة، ليس ككل الولدان الذين تواثبت بهم أرحام الأمهات في هذا البلد الآمن ولا في غيره، ولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وبعث بالرسالة وهو يحمل في ذاته جماع ما حملت به الأنفس الإنسانية من كمال وجمال، ولو اجتمعت فضائل أهل الحكمة والعلم جميعا منذ كانت الحياة وجعلت في إنسان واحد ما بلغت مثل نفسه صلى الله عليه وسلم ،وكأنما هذه النفس الزكية بخلق الله قد تفردت حتى صارت هي النفس الإنسانية الكبرى ولا يعرف التاريخ غير محمد صلى الله عليه وسلم رجلا كلمه ربه وجمله وأدبه فإذا الإنسانية تتحول به وتنمو وكما قيل كان في آدم سر وجود الإنسانية وكان في محمد سر كمالها ، والذي يتابع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لا يجد وصفا أخصر من أنها كانت سيرة التقوى التي تتضمن

الحب لله تعالى والخوف منه سبحانه، وكانت النموذج الأعلى للناس جميعا في كل المواقف والمراكز الاجتماعية طفلا أو شابا أو شيخا جنديا أو قائدا ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً))(١).

لقد عاش محمد صلى الله عليه وسلم حياة كانت المثل الأعلى الذي تطلع البشرية إلى الوصول إليه، إذ قد تمثلت في حياته (صلى الله عليه وسلم) كل الفضائل فحين سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن أخلاقه قالت ((كان خلقه القرآن))أي كان قرآنا يتحرك ويمشي بين الناس يتمثل كتاب الله هديا وسمتا وأخلاقا وسلوكا ، ليس هذا ما يقوله المسلمون ولكن ما يقوله أيضا كل دارس محايد غير متعصب فهذا هو ما يكل هارت يكتب كتابه العظماء مائة ثم لا يجد من يتوج به مسيرة العظماء في التاريخ كله سوى محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا هو الكاتب الأيرلندي برنارد شو يذكر أن محمد صلى الله عليه وسلم قادر على أن يحل مشاكل العالم قبل أن يتناول فنجانا من القهوة وينقل الدكتور / عبد الجليل شلبي عن المستشرقة الإنجليزية(تساريس وادى) قولها ((كان النبي صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى للشخصية المتكاملة ودراسة شخصيته شئ فاتن وجذاب، وحتى من خلال الجوانب الإنسانية ببساطته وعمقه وتواضعه وحبه للإنسانية وتسامحه كلها تبين حقا أنه يمثل فضائل الله التى وهبها لبني الإنسان ولهذا قال فيه القرآن((وإنك لعلى خلق عظيم))(٢) كما قال ((وكان فضل الله عليك عظيما)) لقد كان نموذجا يحتذي في طفولته ورجولته، وفي كونه زوجا وأبا وابنا وتاجرا وقائدا ونبيا ومعلما ومشرعا وصديقا وحاكما ومحبا ورفيقا كريما)(٣)

لو فكر البابا أو أي شخص عاقل في نفسه من عساه يكون ذلك الرجل الذي شغل البشرية بما جاء

(١) سورة الأحزاب [آية : ٢١]

(٢) سورة القلم :[آية : ٤].

(٣) صور استشراقية : د/ عبد الجليل شلبي ، سلسلة البحوث الإسلامية السنة العاشرة يناير ١٩٧٨م صـ ٢١٢، ٢١٣

به إلى يومنا هذا و بعثت به من العدم أمة كانت تعيش في جاهلية عمياء فأصبحت في غضون سنوات قليلة دولة راسخة الأركان وحضارة مزدهرة امتدت في جميع أنحاء المعمورة لا يقف في وجهها شيء ؟

لو تأمل كيف استطاع رجل بمفرده أن يحدث أكبر تغيير شهده التاريخ و هو على يقين بما جاء به و ما سيصل إليه من أول يوم بدأ فيه دعوته ؟

ألم تسأل نفسك ما الذي جناه هذا الرجل لنفسه من متاع الدنيا مقابل تحمله مشاق هذه الدعوة و الصبر على أذى قومه و تكذيبهم ثم جهادهم عليها جهادا كبيرا ؟

والصحيح أيها البابا أن كل من قرأ سيرة محمد و أخباره و أيامه من الباحثين المنصفين غير المسلمين أجمعوا على أن هذا الرجل قد اجتمعت فيه كل صفات الكمال البشري من حسن الخلق و رجاحة العقل و سلامة الفطرة و رقة الطبع و الشجاعة و بلاغة اللسان. هذا الفيلسوف الانجليزي توماس كارليل الحائز على جائزة نوبل يقول في كتابه الأبطال : " لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خدّاع مزوِّر . وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ؛ فإن الرسالة التي أدّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟!

إلى أن قال : " وعلى ذلك ، فلسنا نعُدُّ محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعا ، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته ، ويطمح إلى درجة ملك أو سلطان ، أو إلى غير ذلك من الحقائر .وما الرسالة التي أدّاها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا قول صادق .

كلا ، ما محمد بالكاذب ، ولا المُلفق ، وهذه حقيقة تدفع كل باطل ، وتدحض حجة القوم الكافرين .

ثم لا ننسى شيئاً آخر ، وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حديثه العهد إذ ذاك في بلاد العرب – وعجيب وأيم

الله أُمِّـيةَ العـرب ـ ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره، ولم يكن إلا كجميع أشباهه من الأنبياء والعظماء ، أولئك الذين أشبِّههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور.

وقد رأيناه طول حياته راسخ المبدأ ، صادق العزم ، كريماً برًّا ، رؤوفاً ، تقياً ، فاضلاً ، حراً ، رجلاً ، شديد الجد ، مخلصاً ، وهو مع ذلك سهل الجانب ، ليِّن العريكة ، جم البشر والطلاقة ، حميد العشرة ، حلو الإيناس ، بل ربما مازح وداعب ، وكان ـ على العموم ـ تضيء وجهه ابتسامةٌ مشرقة من فؤاد صادق ؛ لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأقواله ."

ويقول: " :كان عادلاً ، صادق النية ، كان ذكي اللب ، شهم الفؤاد ، كأنما بين جنبيه مصابيح كل ليل بهيم ، ممتلئاً نوراً ، رجلاً عظيماً بفطرته ، لم تثقفه مدرسة ، ولا هذبه معلم ، وهو غني عن ذلك"

و بعد أن أفاض كارليل في إنصاف النبي محمد ختم حديثه بهذه الكلمات : "هكذا تكون العظمة. هكذا تكون البطولة. هكذا تكون العبقرية"

ونحن نقول هكذا تكون النبوة والرسالة ، وهكذا يكون مثل الأنبياء والمرسلين .

أما (لا مارتين) الفيلسوف الفرنسي فيدافع بحرارة عن النبي صلى الله عليه وسلم وينفي بصرامة وقوة أن يكون كاذباً أو مفترياً على الله فيقول:

((إنه فيلسوف وخطيب ومشرع وهاد للإنسانية إلى العقل وناشر للعقائد المعقولة الموافقة للذهن وهو مؤسس دين لا فرية فيه ومنشئ عشرين دولة في الأرض وفاتح دولة في السماء من ناحية الروح والفؤاد، فأي رجل أدرك من العظمة الإنسانية ما أدرك محمد وأي آفاق بلغ إنسان من مراتب الكمال ما بلغ محمد)) و يقول في موضع آخر " :أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية ، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، ومن ذا الذي يجرؤ على تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد ؟! ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه ، عند النظر إلى جميع المقاييس التي تُقاس بها عظمة الإنسان؟! إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي

كان مكرسا لتبليغ الرسالة وصلواته الطويلة وحواره السماوي هذه كلها تدل على إيمان كامل مكَّنه من إرساء أركان العقيدة .إن الرسول الخطيب والمشرع والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسس عبادة غير قائمة على تقديس الصور هو محمد ، لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق""(١)

و هذا جوته الأديب الألماني : "" إننا أهل أوربة بجميع مفاهيمنا ، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد ، وسوف لا يتقدم عليه أحد، ولقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان ، فوجدته في النبي محمد ... وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد""(٢)

فهل ترى أن كل هؤلاء الأدباء و المفكرين - و لولا قصر البحث لذكرت أكثر من ذلك- من مختلف الجنسيات قد اخطأوا في مدح محمد؟ أو أنهم أجمعوا علي الثناء عليه بمحض الصدفة؟ أم أنهم كانوا غير مشهورين فأرادوا أن ينالوا الشهرة من خلال مدحهم له - صلى الله عليه وسلم- ؟ أم أن هذه الشخصية العظيمة تستحق فعلا الثناء والمدح؟ ترى هذا الرجل الذي لبث بين ظهراني قوم جاهليين وظل فيهم أربعين سنة لا يشاركهم في عبادتهم للأوثان و لا يقارف منكرا مدة شبابه كله حتى إذا بلغ من العمر أربعين سنة و أصبح إلى الشيخوخة أقرب منه إلى الشباب أتى بهذا الأمر العظيم بعزيمة أمضى من السيف و أمل أسطع من البرق لا يكل و لا يمل حتى أدى رسالته و نجح في مهمته هل يمكن أن يكون مزورًا؟

هؤلاء أهل مكة قالوا له بألسنتهم قبل أن يبلغهم الدعوة " ما جربنا عليك كذبا قط" و كانوا يودعون عنده أماناتهم حتى بعد أن جهر بالدعوة لأنه عندهم ما زال الصادق الأمين و لو كذب مرة واحدة لما آمن به أحد منهم فهل تراه يذر الكذب على الناس ثم يكذب على الله ؟ وقد بلغ من حسن أخلاقه أن الرجل كان يأتيه قبل أن يسلم وهو أشد الناس كراهية له صلى الله

(١) السفر إلى المشرق : ص ٢٧٧

(٢) شمس الله تسطع على الغرب : زيجريد هونكة ٤٦٥

عليه وسلم فما يمكث معه إلا قليل حتى يقوم من عنده داعيا قومه قائلا لهم جئتكم من عند خير الناس و قد أصبح أحبهم إليه –صلى الله عليه وسلم.

هب أن أخلاقه هذه كانت تتكلفا مع الناس فهل يتحمل أن يتكلف أيضا داخل بيته مع زوجاته و بناته – على كثرتهن – أم أنه كان يحسن معاشرتهن و يقول [خيركم خيركم لأهله و أنا خيركم لأهلي] حتى أن أول من آمن به و صدقه زوجته خديجة؟ و حينما سئلت زوجاته عن حاله في بيته قالت كان في مهنة أهله – تعني في خدمة أهله – فإذا حضرت الصلاة خرج فصلى وفي حديث آخر كان يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته ولم يضرب بكفه امرأة قط و كان يستأذن زوجاته إذا أراد أن يُمَرّض في بيت إحداهن و كان يداعبهن و سابق عائشة زوجته مرتين فسبقته و سبقها وكان يمزح ولا يقول إلا حقا و كان يدعو أصحابه إلى إحسان عشرة النساء و يقول اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنَّ بأمانة الله و كان يقول أن خير الدراهم هو الدرهم الذي ينفقه الرجل على أهل بيته

بل إن خادمه أنس بن مالك يقول : [خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت.] و كانت آخر وصيته قبل موته الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم يوصي بالمحافظة على الصلاة وإحسان معاملة الخدم والعبيد .

وكان –صلى الله عليه وسلم- أكرم الناس فما سُئل شيئا يملكه و قال لا و كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر وكان مثالا في الحلم والصفح فقد روي أنه كان نائما تحت ظل شجرة و سيفه معلق عليها فجاء أعرابي فأخذ السيف و قال يا محمد من يمنعك مني فقال : الله . فسقط السيف من يد الرجل فأخذه النبي و قال له من يمنعك أنت الآن مني فقال لا أحد فعفا عنه وانصرف الرجل و قسم مرة مالا بين ناس فجاءه أعرابي فجذبه من طرف ردائه و قال هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فغضب رسول الله و ما زاد على أن قال و من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحم الله موسى فقد أوذي بأكثر من هذا و

صبر و كان أرحم الناس و أرضاهم بقضاء الله انظر إليه و قد فاضت روح ابنه إبراهيم بين يديه فقال و هو تدمع عيناه : " تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون ."و كان أشجع الناس حتى أن الصحابة كانوا يحتمون به في المعركة إذا اشتد وطيسها و حمي أوارها. أفما آن للعاقل أن يفكر : هل يمكن أن تجتمع كل هذه الشمائل-التي لم تتغير طوال حياة صاحبها- إلا في نبي كريم متبع لملة أبيه إبراهيم؟ هل جنى محمد - ص - لنفسه من دعوته تلك شيئا من متاع الدنيا الزائل أم أنه كان يربط الحجر والحجرين على بطنه من الجوع و يقول اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ؟ ألم يكن يظل بالشهر و الشهرين و لا توقد في بيته نار و يقول اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا في حين أنك ترى في كل دين آخر ما يكفل للكهنة و رجال الدين فيه مصادر الثروة و الغنىفما الذي صبره على ذلك إن لم يكن من الصادقين ؟ وما الذي حمله على ألا يقبل غلو أصحابه في حبه و مدحه فتراه لا يرفع نفسه عن قدره و يقول لأصحابه لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله و رسوله و في إحدى المواقف جلست جويريات يضربن بالدف صبيحة عرس إحدى نساء الأنصار و جعلن يضربن بالدف ويندبن من قتل من أبائها يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال: دعي هذا، و قولي بالذي كنت تقولين و مصداق ذلك في كتاب الله :" قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"

ولما توفي أحد المهاجرين قالت عنه امرأة من الأنصار : رحمة الله عليك يا أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (وما يدريك أن الله أكرمه). فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ فقال: (أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري، وأنا رسول الله، ما يفعل بي). قالت: فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا أترى لو كان محمد يتحامى الكذب دهاء و

سياسة خشيةً أن يكشف الغيب قريبا أو بعيدا عن خلاف ما يقول ما الذي كان يمنعه أن يتقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت و هو لا يخشى من يراجعه فيه و لا يهاب حكم التاريخ عليه؟ لقد منعه الخلق العظيم و تقدير المسئولية الكبرى أمام حاكم آخر أعلى من التاريخ وأهله[1]

ثم كيف يمكن لرجل عادي – لو كان عاديا – أن يؤلف وحده شريعة محكمة لا تدع أمرا من أمور الإنسان إلا ونظمته على الوجه الأمثل بدءا من طريقة الأكل و الشرب حتى نظام الحكم فما تركت خيرا من أمور الدنيا إلا و أمرت به و لا شرا إلا و نهت عنه و يشهد بذلك مفكرو الغرب أنفسهم و الدراسات الحديثة و الفضل ما شهدت به الأعداء. و ما زالت إلى اليوم هذه الشريعة معينا لا ينضب للباحثين و العلماء يستخرجون منها من الحكم الباهرة و الأحكام الدقيقة ما يدعو الناس للإيمان و التصديق.

كيف أمكن لرجل بمفرده- لو كان بمفرده- أن يحدث أكبر تغيير ديني و حضاري و سياسي و اجتماعي في العالم استمر إلى الآن حتى إن مفكري الغرب عندما اجتمعوا لكي يحددوا المائة الأوائل الذين كان لهم أكبر تأثير في تاريخ البشرية جعلوا محمدا على رأسهم و ظهر ذلك في كتاب المائة الأوائل لمايكل هارت ألم تمر على أمة الإسلام مائتا عام إلا وكان المسلمون يعيشون نهضة علمية في شتى المجالات في حين كانت أوروبا ترزح تحت جبال من الجهل و التخلف و الخرافات؟!

ومرة أخرى نرتفق منطق المجادلة بَالحسنى ونستصحب أقصى درجات الصبر والعقلانية ونسأل: هل (السيئ وغير الإنساني) الذي جاء به محمد هو: الصدق والنبل والحق والجمال والإعجاب وسائر الصور والأساليب البهيةَ التي قدم بها محمد أخاه المسيح عيسى ابن مريم؟

ـ هل من السيئ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : التعريف الرائع بمعجزة ميلاد السيد المسيح : « فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ

[1] النبأ العظيم : د/ محمد عبد اله دراز ص ٣٦ ، ٣٧ طبعة دار القلم

سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المَهْد صبيًا * قال إني عبدُ الله آتانيَ الكتاب وجعلني نبيًا * وجعلني مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بالصَّلاة والزَّكَاةَ ما دُمْتُ حيًا * وبرًا بوالدتي ولمْ يجْعلني جبارا شقيًا * والسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حيًا * »[1]

ـ هل من السيئ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : التعريف الكريم الودود بالشخصية الوجيهة بالسيد المسيح : « إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » ؟[2]

ـ هل من السيئ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : التعريف بإعجاز نبوة المسيح ورسالته : « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ، إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ، فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي» ؟[3]

ـ هل من السيئ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : التعريف بالإنجيل الذي أنزله الله على سيدنا المسيح : « وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ »[4]

ـ وهل من السيئ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : تمجيد أم المسيح الصدّيقة مريم والدفاع عنها ، ورفع ذكرها في الكتاب ، وترسيخ اليقين بطهرها : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ »[5]

ـ وهل من السيئ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : أنه

[1] سورة مريم : الآيات ٢٧ _ ٣٣

[2] سورة آل عمران : الاية ٤٥

[3] سورة المائدة : جزء من الآية ١١٠

[4] سورة المائدة : الآية ٤٦

[5] سورة آل عمران : الاية ٤٢

وصف صنفاً من أهل الكتاب ، بالتقوى والصلاح ، فقال تعالى : " لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ " (١)

– وهل من السيئ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : أن جعل رسول الإسلام الإيمان بالمسيح عيسى ابن مريم من أركان الإيمان في الدين الإسلامي ، ومدخلا إلى الجنة فقال عليه الصلاة والسلام : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، وأن عيسى عبدُ الله ورسولُه ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنةُ والنار حق : أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى ورؤيا أمي آمنة »

– وهل من السيئ الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم : أن وصف العلاقة بين رجال الدين، في الديانتين ، بأنها مبنية على المودة والتقدير ، فقال تعالى :« وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ »(٢)

أي سوء في هذا العدل، والإنصاف ، والكمال ، والجمال ، والذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ؟.. وأي عقل وأي منطق هذا الذي يحول الحسن إلى قبح ، والكمال إلى نقص ، وتوقير السيد المسيح وأمه ودينه إلى إساءات غير إنسانية ؟!

كنا نتمنى على البابا قبل أن يتبنى قول إمبراطور بيزنطي جاهل بأقدار الأنبياء ..... أن يطلع على حقيقة نبي المسلمين من كتب المسلمين لا من كتب أعدائهم الحاقدين ، وهذا من أولى مبادئ البحث الموضوعي ، وما تقتضيه درجة الأستاذية في الجامعة ، فقد وصف بعض كتاب السيرة شخصية النبي صلى الله عليه وسلم التعاملية فقالوا : لقد كان صلى الله عليه و سلم جمَّ التواضع ، وافر الأدب،

(١)سورة آل عمران : الآية ١١٣

(٢) سورة المائدة : الآية ٨٢

يبدأ الناس بالسلام ، يكون آخر من يسحب يده إذا صافح ، و إذا تصدق وضع الصدقة بيده في يد المسكين ، و إذا جلس جلس حيث ينتهي به المجلس ، لم يرَ مادا رجليه قط ، و لم يكن يأنف من عمل لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار ، و كان يذهب إلى السوق و يحمل بضاعته ويقول : أنا أولى بحملها ، و كان يجيب دعوة الحر و العبد والمسكين، ويقبل عذر المعتذر ،وكان يرفو ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعقل بعيره ، ويكنس داره ، وكان في مهنة أهله ، و كان يأكل مع الخادم ، ويقضي حاجة الضعيف و البائس، يمشي هوناً خافض الطرف متواصل الأحزان ، دائم الفكر لا ينطق من غير حاجة ، كان طويل السكوت ، إذا تكلم تكلم بجوامع الكلم ، وكان دمثاً ليس بالجاحد ولا المهين ، يعظم النعم وإن دقت ، ولا يذم منها شيئاً ، ولا يذم مذاقاً ولا يمدحه ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض بصره ، وكان يؤلف ولا يفرق ، يقرب ولا ينفر ، يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، يتفقد أصحابه و يسأل الناس عما في الناس ، يحسن الحسن ويصوبه و يقبح القبيح ويوهنه ، ولا يقصر عن حق ولا يجاوزه ، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من سأله حاجة لم يرده إلا بها أو ما يسره من القول ، كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب، ليس بفظ و لا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ، ولا عياب ، ولا مزاح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يخيب فيه مؤمله ، كان لا يذم أحداً ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرجى ثوابه ، يضحك مما يضحك منه أصحابه ، ويتعجب مما يتعجبون ، و يصبر على الغريب وعلى جفوته في مسألته و منطقه ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوزه ، والحديث عن شمائله صلى الله عليه وسلم حديث يطول لا تتسع له المجلدات ولا خطب في سنوات ولكن الله جل في علاه لخصها بكلمات فقال :" وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ "(١).

(١) سورة القلم : الآية ٤

نص محاضرة بابا الفاتيكان المثيرة للجدل

وفيما يلي ترجمة عربية من موقع إسلام أون لاين.نت للفقرات الكاملة من محاضرة البابا المتعلقة بهذا المحور (العلاقة بين العقل والعنف في الإسلام والمسيحية)، نقلا عن موقع الفاتيكان الإلكتروني باللغة الألمانية:

"تداعت هذه الذكريات إلى ذهني عندما قرأت منذ فترة وجيزة جزءا من حوار نشره البروفيسير تيودور خوري، من جامعة مونستر، جرى بين الإمبراطور البيزنطي العالم مانويل الثاني ومثقف فارسي حول المسيحية والإسلام وحقيقة كل منهما خلال إقامته بالمعسكر الشتوي بالقرب من أنقره عام ١٣٩١".

- "يبدو أن هذا الإمبراطور قد سجل هذا الحوار إبان حصار القسطنطينية بين عامي ١٣٩٤ و ١٤٠٢، ويدل على ذلك أن مناظرته كانت أكثر توسعا من مناظرة محاوره الفارسي".

- "الحوار تناول كل ما يتعلق بشرح بنيان العقيدة حسبما ورد بالكتاب المقدس والقرآن، وركز الحوار بصفة خاصة على صورة الرب وصورة الإنسان، أو على العلاقة بين ما نسميه الشرائع الثلاثة أو نظم الحياة الثلاثة، ألا وهي العهد القديم والعهد الجديد والقرآن".

- "في هذه المحاضرة لا أريد أن أناقش هذه القضية، ولكن أريد التطرق لنقطة واحدة فقط هامشية نسبيا وشغلتني في كل هذا الحوار وتتعلق بموضوع الإيمان والعقل، وهذه النقطة تمثل نقطة الانطلاق لتأملاتي حول هذا الموضوع".

- "ففي جولة الحوار السابعة كما أوردها البروفيسير خوري تناول الإمبراطور موضوع الجهاد، أي الحرب المقدسة. من المؤكد أن الإمبراطور كان على علم بأن الآية ٢٥٦ من السورة الثانية بالقرآن (سورة البقرة) تقول: لا إكراه في الدين.. إنها من أوائل السور، كما يقول لنا العارفون، وتعود للحقبة التي لم يكن لمحمد فيها سلطة ويخضع لتهديدات. ولكن الإمبراطور من المؤكد أيضا أنه كان على دراية بما ورد، في مرحلة لاحقة، في القرآن حول الحرب المقدسة".

- "وبدون أن يتوقف عن التفاصيل، مثل الفرق في معاملة (الإسلام) للمؤمنين وأهل الكتاب والكفار، طرح الإمبراطور على نحو مفاجئ على محاوره(...) السؤال المركزي بالنسبة لنا عن العلاقة بين الدين والعنف بصورة عامة. فقال: أرني شيئا جديدا أتى به محمد، فلن تجد إلا ما هو شرير ولا إنساني، مثل أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف".

"الإمبراطور يفسر بعد ذلك بالتفصيل لماذا يعتبر نشر الدين عن طريق العنف أمرا منافيا للعقل. فعنف كهذا يتعارض مع طبيعة الله وطبيعة الروح. فالرب لا يحب الدم والعمل بشكل غير عقلاني مخالف لطبيعة الله، والإيمان هو ثمرة الروح وليس الجسد؛ لذا من يريد حمل أحد على الإيمان يجب أن يكون قادرا على التحدث بشكل جيد والتفكير بشكل سليم وليس على العنف والتهديد.. لإقناع روح عاقلة لا نحتاج إلى ذراع أو سلاح ولا أي وسيلة يمكن أن تهدد أحدا بالقتل".

- "الجملة الفاصلة في هذه المحاججة ضد نشر الدين بالعنف هي: العمل بشكل مناف للعقل مناف لطبيعة الرب، وقد علق المحرر تيودور خوري على هذه الجملة بالقول: بالنسبة للإمبراطور وهو بيزنطي تعلم من الفلسفة الإغريقية، هذه المقولة واضحة. في المقابل، بالنسبة للعقيدة الإسلامية، الرب ليست مشيئته مطلقة وإرادته ليست مرتبطة بأي من مقولاتنا ولا حتى بالعقل".

"ويستشهد (تيودور) خوري في هذا الشأن بكتاب للعالم الفرنسي المتخصص في الدراسات الإسلامية (روجيه) ارنالديز (توفي في إبريل الماضي) الذي قال إن ابن حزم (الفقيه الذي عاش في القرنين العاشر والحادي عشر) ذهب في تفسيره إلى حد القول إن الله ليس لزاما عليه أن يتمسك حتى بكلمته، ولا شيء يلزمه على أن يطلعنا على الحقيقة. ويمكن للإنسان إذا رغب أن يعبد الأوثان".

- "من هذه النقطة يكون الطريق الفاصل بين فهم طبيعة الله وبين التحقيق المتعمق للدين الذي يتحدانا اليوم. فهل من الفكر اليوناني فقط أن نعتقد أنه أمر مناف للعقل مخالفة طبيعة الله أم أن هذا أمر مفهوم من تلقائه وبصورة دائمة؟ أعتقد أنه،

من هذه الوجهة، هناك تناغم عميق ملحوظ بين ما هو إغريقي وبين ما ورد في الكتاب المقدس من تأسيس للإيمان بالرب. أول آية في سفر التكوين، وهي أول آية في الكتاب المقدس ككل استخدمها يوحنا في بداية إنجيله قائلا: في البدء كانت الكلمة. هذه هي الكلمة التي كان الإمبراطور يحتاجها: الرب يتحاور بالكلمة، والكلمة هي عقل وكلمة في نفس الوقت. العقل القابل للخلق ويمكن تناقله، شريطة أن يظل رشدا. يوحنا أهدانا بذلك الكلمة الخاتمة لمفهوم الرب في الكتاب المقدس. ففي البدء كانت الكلمة والكلمة هي الرب. الالتقاء بين الرسالة التي نقلها الكتاب المقدس وبين الفكر الإغريقي لم يكن وليد صدفة. فرؤيا بولس المقدس (...) الذي نظر في وجه مقدونيا وسمعه يدعوه: تعال وساعدنا – هذه الرؤية يجب أن تفسر على أنها تكثيف للتلاقي بين العقيدة التي يشتمل عليها الكتاب المقدس وبين السؤال اليوناني".

– "اليوم نعرف أن الترجمة اليونانية للعهد القديم بالإسكندرية (المعروفة باسم السبتواجنتا) أي الترجمة السبعينية، لم تكن مجرد ترجمة للنص العبري فقط بل إنها خطوة هامة في تاريخ الوحي الإلهي، التي أدت إلى انتشار المسيحية".

– "كان هناك تلاق بين الإيمان والعقل، بين التنوير الحقيقي والدين. مانويل الثاني كان يمكنه القول، من خلال الإحساس بطبيعة الإيمان المسيحي، وفي الوقت نفسه بطبيعة الفكر اليوناني الذي اختلط بالعقيدة وامتزج بها، من لا يتحاور بالكلمة فإنه يعارض طبيعة الرب".

– "هنا يمكن ملاحظة أنه في نهايات العصر الوسيط ظهرت اتجاهات في التفسير الديني تجاوزت التركيبة اليونانية والمسيحية. فتميزت مواقف تقترب مما قاله ابن حزم وتتأسس على صورة تصف الرب الذي لا يرتبط بحقيقة أو بخير.

– "الاستعلاء، الذي هو الطبيعة المخالفة للرب، تجاوزت المدى لدرجة أن رشدنا وفهمنا للحقيقة والخير لم يعد المرآة الحقيقية للرب، وتظل إمكانياتها غير المحدودة مخفية وغير متاحة لنا إلى الأبد. في مقابل ذلك تمسك

الاعتقاد الكنسي بحقيقة أنه يوجد بيننا وبين الرب وبين روح الخلق الأبدية وبين عقلنا تطابق.

– "وختاما فرغم كل السرور الذي نرى به الإمكانيات الجديدة التي أدخلها الإنسان، نرى أيضاً التهديدات التي تتنامى من هذه الإمكانيات. ويجب أن نسأل أنفسنا كيف يمكن أن نسيطر عليها. ولن يمكننا ذلك إلا إذا تلاقى العقل والإيمان بصورة جديدة. ومن خلال ذلك فقط يمكننا أن نكون مؤهلين لحوار حقيقي بين الحضارات والأديان الذي نحن في أمس الحاجة إليه".

"العقل الذي يكون فيه الجانب الرباني أصم والدين ينتمي إلى الثقافات الثانوية هو عقل غير صالح لحوار الحضارات. وقد قال مانويل الثاني إنه ليس من العقل أن ألا يكون التحاور بالكلمة؛ لأن ذلك سيكون معارضا لطبيعة الرب، قال ذلك من خلال منظوره لصورة الرب المسيحية، لمحاوره الفارسي.. بهذه الكلمات وبهذا البعد من العقل ندعو لحوار الحضارات مع شركائنا".

الخاتمة

يقول الشاعر :

رماني الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال

ما شأن هذا البابا بالإسلام؟ وما علاقته بالنبي صلي الله عليه وسلم؟ ومن الذي خوله أن يتحدث عنه بمثل ما تحدث به في ألمانيا؟

إن الذين أوتوا الكتاب يعرفون محمدا صلي الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم. بذلك نطق القرآن الكريم. فإن كان هذا البابا منهم فقد عرفه. وما قاله إذن كذب صراح لا يليق بذي عقل فضلا عن صاحب دين، ودعك من كونه صاحب أكبر منصب ديني في ملته.

وإن كان هذا البابا من أهل التحريف والتبديل وسوء الصنيع فإنه لم يعرف محمدا صلي الله عليه وسلم، بل ران علي قلبه ما كسب من فعله، فما الذي يحمله علي الكلام الأبله الذي قاله في ألمانيا؟

إنني لا أجد جوابا عن هذه الأسئلة كلها إلا: أنّ الحماقة أعيت من يداويها. هذا إن كان هناك في العالم الكاثوليكي من يريد أن يداويها أصلا.

وأخيرا : كيف نرد على هذه الإساءة؟

وإذا كان لي من رجاء في نهاية تعليقي فإنني أدعو الأمة الإسلامية وجميع العقلاء في العالم وألفت انتباههم إلى التالي:

١- على حكومات الدول العربية والإسلامية أن تستشعر مسئوليتها تجاه دينها، وأن تقوم بواجبها في التصدي لكل من تسوّل له نفسه الاعتداء على الإسلام والمسلمين، ولا أقل من أن ترسل رسائل الاستنكار الواضحة والشديدة إلى بابا الفاتيكان، وتطالبه بالاعتذار صراحة عن هذه الإساءة، وصدق القائل حين قال:

أما الله والإسلام حق
يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا
أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

٢- على الأمة العربية والإسلامية أن تدرك أن سبب تجرؤ بابا الفاتيكان وغيره من اليهود والنصارى على الإسلام والمسلمين هو ضعفها وتمزقها وعدم سعيها الحثيث لامتلاك أدوات القوة التي يضطر بها خصومها إلى احترامها وعدم الاستهتار بها.

٣- على الشعوب الإسلامية أن يعلنوا غضبتهم لله ولرسوله ولدينه، وأن يظهروا استياءهم الشديد تجاه هذه الإساءة بكل الوسائل المتاحة والمشروعة، لا سيما من خلال الإعلام بجميع وسائله المرئية والمسموعة والمقروءة.

٤- على الشعوب الإسلامية انتهاج العقل والحكمة في التعبير عن غضبهم واستيائهم، وأن يبتعدوا عن العنف والتخريب.

٥- في حالة إصرار بابا الفاتيكان على عدم الاعتذار الصريح والواضح عن هذه الإساءة، فإننا ندعو الدول العربية والإسلامية إلى قطع العلاقات مع هذا البابا، واعتباره شخصا غير مرغوب فيه، وإغلاق مكاتبه في جميع الدول العربية والإسلامية.

٦- دعوة الشعوب والحكومات العربية والإسلامية إلى المساهمة الحثيثة في نهضة هذه الأمة، كلٌّ في مجاله وحسب إمكاناته، وهذا أقوى رد يمكن أن يتلقاه كل من تسوّل له نفسه الإساءة للإسلام والمسلمين؛ حيث هذه الإساءة ليست أول إساءة ولن تكون آخر إساءة.

٧- دعوة العقلاء من النصارى إلى التبرؤ من هذه الإساءات، وأن يدركوا أنها لا تخدم السلام العالمي، كما أنها لا تخدمهم، بل تسيء إليهم كما تسيء إلى المسلمين.

٨- دعوة المسلمين في الدول غير الإسلامية، لا سيما الدول الغربية، إلى الاجتهاد في توضيح حقيقة الإسلام للغرب، وأن يبذلوا جهودا أكبر في الدعوة إليه ونشره لتنعم البشرية بما فيه من الهدى والنور والرحمة للعالمين.

٩- دعوة علماء المسلمين إلى محاورة النصارى، وتفنيد افتراءاتهم، وشرح الدين الإسلامي بصورة صحيحة، ولعل ما قام به أحمد ديدات -رحمه الله- كان مثلا رائعا في هذا الشأن.

وأخيرا يقول الله تعالى: ((يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ))[1] .

(1) سورة آل عمران : الآية ٧١

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع

الصفحـــة